صلاة الماء

حقوق الطبع محفوظة

اسم الكتـــاب: صلاة الماء
تـأليــــــــف: أحمد سعيد نيچور
تصميم داخلي: سالم عبدالمعز سواح
النــاشـــــــر: دار الزيات للنشر والتوزيع
القـطـــــــع: 14*20
سنـة النشـر: 2024

تم الإيداع بدار الكتب والوثائق المصرية برقم: 23809 / 2024
الترقيم الدولي (ISBN): 978 - 977 - 844 - 550 - 3

دار الزيات للنشر والتوزيع
المشهرة قانونًا بسجل تجاري رقم/ ٤٩٣٥١

ت: ٠١٠٦٦٧٣٦٧٦٥ - ٠١٠١٥٧٦٦٠١٤ / shahnda71@gmail.com

9 789778 445503

صلاة الماء

قصص

أحمد سعيد

نيچور

إهداء

إلى المرأة التي دخلت عقلي، سارت بين مروجه، وسمعت ضوضاءه، رسمت بريشتها عالمي الخاص، فمنحته الجمال والعذوبة، وكانت الصوت الساحر في كل ما أكتب. إليها كلماتي، وقصصي، عَلّ الله يمنحها سعادةً، ويُبدل حزنها فرحًا، ويجمعنا بعد فراق.

ماء العين

كان كل شيءٍ يسير كعادته، حتى خرجتُ صباحًا من البيت للعمل، فوجدت ماء نافورة الحي يتبخر. في البداية لم ألقِ بالًا؛ فربما هو مجرد تغير فيزيائي طبيعي يحدث كل يومٍ لكنني لا ألحظه.

في الظهيرة اتصلت ابنتي، أخبرتني أن المياه مقطوعة وصنابير البيت لا يخرج منها سوى البخار، تناولت منها زوجتي الهاتف، وأخبرتني أنْ أمر على السوبر ماركت لجلب بعض زجاجات الماء.

عندما توجهت إلى الحمام، لأغتسل قبل مغادرة العمل، رأيت الصنابير كما قالت البنت، لا يخرج منها سوى البخار. نزلت مسرعًا، الجو مشبع ببخار الماء، والهواء أصبح خانقًا. عند ذهابي للحصول على زجاجات ماء كافية، فوجئت بطوابيرٍ ضخمة، زحام شديدٌ أمام منافذ بيع زجاجات المياه، أمقت دومًا الطوابير، أترك الأشياء التي أحتاجها عندما أرى طابورًا، لكن الماء ليس ككل الأشياء التي أحتاجها، إن صبرتُ أنا، أو صبرتْ زوجتي، فهل تتحمل ابنتي الصغيرة العطش؟! بعد عدة ساعات من الوقوف، والشد والجذب مع الواقفين حصلت على كرتونة كاملة.

النهر الممتد وسط المدينة جَفّ، صار مجرد أرضٍ مشقوقة، تبخرت مياهه. كيف تتبخر المياه هكذا ودرجة الحرارة كما هي لم ترتفع؟! العبوات هي الأخرى تتبخر، يصطدم البخار بجوانب

الزجاجة، فيتكثف، ويعود ماءً مجددًا. دورة كاملة تحدث بداخل العبوة الصغيرة. كنا نشرب، فلا نعرف أنشرب ماءً أم بخارًا؟!

سألتني ابنتي: ماذا يحدث يا أبي؟!

أجبت: لا أعرف، الماء يغادرنا.

جلسنا نشاهد التلفاز، لنرى شيئًا يُبعد حيرتنا، ويعطينا أملًا بعودة كل الأشياء لطبيعتها. لكن العلماء الذين ظهروا على الشاشة، لم يعطونا تفسيرًا منطقيًا لما يحدث، وصى أحدهم بمغادرة المدينة فلا يوجد حلٌ آخر، اعترض زملائه على كلامه، واتصل مسئولٌ حكومي يُعنّفه على قوله. لكنني شعرت أنه أصدقهم، هو الوحيد الذي يعرف أبعاد المشكلة.

في الصباح وبعد أن تشاورت مع زوجتي، أخذنا القرار بالرحيل. حزمنا حقائبنا، وعبئناها بزجاجات المياه، وبعض الملابس الخفيفة التي لا تشغل حيزًا كبيرًا، والقليل من الطعام. لا نعرف أين نتجه، لكنني شعرت بأنه يجب أن نتبع اتجاه البخر، فالبخار لا يصعد مباشرة للسماء، لكنه يتجه شمالًا.

عائلاتٌ كثيرة ترحل مثلنا، الرعب يغطي ملامح الوجوه. حرصنا أن لا نوسع علاقاتنا حتى إذا نفد من أحدهم الماء لا نضطر لأن نعطيه.

لا وجود للماء في أي مكان. الأشجار ذابلة، وبعضها أصابها الجفاف كليًا، الحيوانات خرجت من كمائنها للشوارع بحثًا عن الماء، والطيور تقف على الأشجار عاجزة عن الحركة. مشهدٌ مخيفٌ، ويبدو لا حل.

سقط أحدهم في وسط الطريق بعد أن أصابه العطش القاتل، ظلت الصغيرة تقول: فلنعطه من مائنا يا أبي. نهرتها قائلًا: ما معنا يكفينا بالكاد. لكنها ظلت مصرة على موقفها، وعندما فقدت الأمل في تغيير موقفي، قالت مستعطفة: أبي، فلتعطه نصيبي. رَبّت على كتفها قائلًا: سنعطيه ما يحتاجه. اتجهت إليه، وقمت بوضع زجاجة الماء في فمه، ظل يشرب بنهمٍ حتى شبع. قال لي: شكرًا يا سيدي؛ فبرغم المحنة هناك من لم يفقد إنسانيته. وقعت كلماته عليّ كالرعد، حينها نظرت للطفلة، محركًا شفتي، وقلت لها: شكرًا يا حبيبتي.

ظل الوضع كما هو عليه عدّة أيام، الأبخرة تتصاعد من كل مكانٍ، وما نحمله من ماءٍ نفد تمامًا. في البداية رأيت الناس كالأشجار يصيبهم الذبول، صارت البنت شاحبة جدًا، وتغيّر لون بشرة زوجتي، أما أنا فأول علامات التغيّر أصابتني في عينيّ، أشعر بوجود سحابة عليها تحجب الرؤية. قال لي طبيبٌ كان يسافر بجوارنا: لقد أصبت بماءٍ على العين.

كدت أموت من الضحك، فنحن خرجنا بحثًا عن الماءِ وهو في عينيّ.

قالت الصغيرة مازحة: هل يمكننا الشرب من عينيكَ يا أبي؟

قلت لها مصطنعًا الجدية: يمكنكِ الشرب من عينيّ، وبعدها سأشرب من دمكِ.

زوجتي الثرثارة صامتة. أقول لها: لماذا لا تتكلمي كعادتك يا حبيبتي.

فتقول لي: أشعر بأني لن أكمل الرحلة.

بعدها بعدّة كيلومترات سقطت بجواري، وهي تتكئ عليّ، حاولت إفاقتها بشتى الطرق، لكنها لا تفيق. لم أصدق الطبيب الذي أخبرني بموتها، حاولت احتواء حزن صغيرتي، ولكن من يحتوي حزني أنا؟ شاركتني في الضراء قبل السراء، وكانت نعم الزوجة والحبيبة. دفناها أسفل شجرةٍ بلا أوراقٍ على جانب الطريق، كتبتُ على الرمال التي تعلو جسدها "لقد وصلتي لنهاية رحلتك فارتاحي."

الإعياءُ ضرب الجميع، صرنا نتحرك ببطءٍ شديد، حتى أشارت ابنتي علينا بالتحرك بجوار بعض على أن يسند كل واحدٍ منا الآخر. ظننت أنها تطبق علينا بعض ألعابها الطفولية، لكنني بعد ذلك رأيته اقتراحًا منطقيًا. كنا نسير نحو اتجاهٍ واحدٍ، كوحدةٍ واحدة، كل فرد يسند الآخر. تمر الساعات، ونحن على هذه الحالة.. نتحرك بصعوبةٍ بالغة، لكننا نتحرك.

أشارت الفتاة فجأة إلى مكانٍ بعيد، لم أستوضحه في البداية بسبب ضعف بصري، لكن الرؤية بدأت تنكشف رويدًا رويدًا، إنها تبة عالية، تنساب المياه بها في كل مكانٍ، الأشجار تغطيها، والطيور تحلق فوقها.. إنه مكان وصول الأبخرة. دبت بنا القوة، صرنا نهرول سريعًا، بجواري صغيرتي التي نضجت في الرحلة، تقول بصوتها الملائكي: لقد وصلنا يا أبي.. لقد وصلنا.

ابن الحياة

تقول القابلة للمولود: احذر!

فيتنهد وجعًا، ويخبرها بأنه جاء ليتلقى رصاصةً عاجلة.

تهتزُ الأرض، وتتحطم الثلوج البعيدة، ولا تأتي رصاصةً عينية، لكنه يتلقى آلافًا من رصاصات المحيطين.

تخبره آنسة الحضانة، أن أداة التزلج غير مرغوب بها هنا، ويخبرها أن الشتاء قادمٌ بقسوةٍ هذا العام، فتنتحي جانبًا، وتبكي حبيبها الذي تركها في شتاءٍ ما.

تقول له معلمة الفصل: لا تتبجح، وكن رقيقًا. فينظر لها متعجبًا، ويتركها ويذهب لسبورةٍ سوداء فيخربشها، ينظر لها مجددًا قائلًا: إفساد السوادِ يبيضها.

تمتلئ البلاد بلونٍ رمادي، يموج الناس هلعًا، فيهرولون في الأزقة والشوارع، يهربون إلى حقول العنب على أطراف المدن، لكنه يظل جالسًا في الشارع، هادئ البال، فتصيح به امرأته: لنهرب يا مجنون! فيبتسم ابتسامةً تُخيفها ويقول لها: نهربُ من قدرٍ لقدر.

تتشقق الأرض من ناحية حقول العنب، فيجري الواصلون الأوائل إلى قلب المدن؛ فيصطدمون بالقادمين، يدفعون بعضهم البعض، يتقاتلون، ويسقطون الواحد تلو الآخر.

يظل قابعًا في مكانه، يغطيه الرماد وقد تكلس جسده على وضعية القرفصاء في وسط الشارع.

انتهت الهَزَّة، أصبح تمثاله مزارًا، يزوره الباحثون عنِ الحق، ويتمسح به الدهماء، يقدمون له القرابين، ويطوفون حوله.

توحد

وُلِدت في بلدةٍ مليئة بالجسور، موصولون نحن للعالم بشبكةٍ تشبه في تشكيلها الهندسي شبكة عنكبوت عملاقة. أسمع همهمات من حولي: لقد أُصيب بالتوحد.

وحيدٌ أرى العالم فارغًا، لا الجسور يمر من عليها أحد، أو يتنزه العشاق فوقها.

تطعمني امرأة تقول لي: أنا أمك. لا أرفض الطعام، ولا أرفض قبلاتها المتتابعة.

في عامي العاشر، سرتُ فجأة، بعد أن قال الأطباء للمرأة التي تطلق على نفسها أمي بأنني مصابٌ بضمورٍ في العضلات.

أتذكر تلك الابتسامة والنظرة على وجهها، وهي تصطحبني للتنزه بالخارج، أبتسم لها أنا أيضًا، وأرسل عينيّ بعيدًا، فألمح استمرار خواء الجسور.

أخبرني ذلك الشاب الذي مر من أمامي مصادفة أنَّ الثورة قامت، والفوضى تعج، والزحام في كل مكان. لكنني كالعادة لم أرَ أحدًا فوق الجسور.

سمعت أصواتًا صادرة من حولي تصرخ خائفة: الحرب توشك على البدء.

هرعت لأحتمي فوق جسرٍ متمنيًا ألا تقوم الحرب. رأيت سيارةً مسرعة فوق الجسر، ثم توقفْ في المنتصف، ترجل منها رجلٌ، وغاب في الناحية الأخرى، بعد وقتٍ قصير انفجرت وحطمت الجسر. أرى أمي من بعيدٍ تهرول ناحيتي، تخبرني يداها بالابتعاد، وتدفعني قوة القنبلة، فأسقط في الماء بالأسفل.

أسمع همساتٍ وغمغماتٍ حولي: لقد أُصيب بالتوحد.

لقد كبرتِ

تقفُ ضجرة، لا تعرف متى جاءت هنا، حديقةٌ واسعة، تضيق عليها، بطٌ وأوز يدورن حولها في فوضى، ضجيج قادمٌ من داخل البيت، صوت رجل يغطي على صوت طيورها: أين الجوارب يا هانم؟!

تصمت، شيءٌ يجثم على صدرها هذه المرة، لن تنطق، لن تخبره ما يفعله، تنزوي بأسفل شجرة المانجو، تضم يديها لركبتيها، وتنتحب باكية.

يخرج بردائه الداخلي، يصرخ بها: لماذا لا تردين؟! تغرقها موجةٌ صامتة، لا تستطيع الصمود أمام عنفوانها، لا تراه أمامها ساعتها، كأنه ذرٌ متناثر حولها.

تغمض عينيها، في نوبةِ صرع.. فتاةٌ ترتدي مريولة كُحلية، يسألها جارها: ماذا تريدين أن تصبحي عندما تكبرين؟ تمط شفتيها، وتقول له باسمة: أريد أن أصبح عاشقة.

يهز جسدها بعنفٍ: أفيقي يا أم العيال. تضرب وجهه فجأة، تصرخ به: ابتعد عني، أكرهك، أكرهك.

يخبرها والدها، بأنها ستتزوج بعد ستة أشهر، تشتكي لأمها، فهي لا تعرف "طارق حياتها"، تقول لها أمها: المعرفة تأتي بعد الزواج، البنت ليس لها سوى بيت زوجها.

يصفعها على وجهها، محاولًا إعادتها، فتغمض عينيها أكثر، لا ترى سوى ضباب، حيوان الوجع الأليف يتمسح بساقها، تتذكر بعد عامٍ على زواجها قولها له: أريد أن أخرج، أن أرى الدنيا. فيجيبها بصوته الغليظ: دنيتك يا هانم، هي بيتك. انسي كل ما كنتِ تفعلينه في بيت أبيكِ، كلها عدة شهور وتصبحين أُمًّا.

تَشعر أن حياتها تتفلت من بين يديها، لا تستسيغ قضاء يومها بالكامل داخل المطبخ، تقول لها صديقتها: احمدي ربنا، لا تتمردي على حياتك، دعي تمردكِ القديم؛ فلقد كبرتِ.

فتحت عينيها فجأة. تصرخ بوجهه: الجوارب كما هي في خزانة الملابس.

ثورة الأصابع

يرفع يده لأعلى، هل هذه يدي؟! لا يتعرف على ملامح أصابعه، إبهامه عجوز هده الزمن، سبابته تشير لوجهه ساخرة، تلتف اليد حول رقبته، يحاول مقاومتها، فتخرمشه، تسيل منه الدماء، يصرخ، فيهجم عليه الخنصر، يلومه على الصراخ، وينغرس البنصر في حلقه، يناشد إصبعه الأوسط أن يتوسط من أجله، فتجتمع أصابعه عليه، تربتّ على رأسه؛ فيلين، وفي غفلةٍ منه تنقضّ عليه، يقودها أصبعه الأوسط، يشهق، وتختنق رئتاه، ويدخل عالم المجهول.

حصيرة

وُلِدْتُ على حصير البوص، صرختُ أول صرخاتي متألمًا، وقد شكّل خطوطًا طولية على جسدي، أطعمتني امرأةٌ لا أعرفها لبنًا صافيًا، كنت أناديها: أمي.

تبدّل الحصير كليم صوفٍ؛ فكبرت قليلًا، ألعب الحَجْلة والغُمَّيضة، جاء رجلٌ ذو لحية رمادية، صفعني على وجهي، قال لي: أنا أبوك.

بدأ الطعامُ يتساقط من يدي، تبدل الكليم موكيت، عندما رأتني أمي، ابتسمت قائلة: هذا رزقكَ يا ولدي. نمت مبكرًا، فاستيقظت فجرًا، على صوت أقدام فتاةٍ تسير على الأرضية الناعمة، كأنها تسير على ماءٍ رقراق، في تلك اللحظة سمعت هاتفٌ داخلي: كَمِّلْ نصف دينك.

تحول الموكيت أسفل مني لسجادةٍ مزركشة؛ فتزوجتها.

اختفى أبي وأمي فجأة، لم أستطع البحث عنهما خارج حدود السجادة. تناسيتهما بعد فترة.

أنظف سطحها يوميًا، أُبعد عنها الأتربة، وأرش نسيجها بعطرٍ زكي، ثم أجلس في ركنها، أستمتع بألوانها، رغم بريقها المفقود.

استيقظت ذات يومٍ على صراخ طفلٍ، وقد عادت السجادة حصيرة بوصٍ. دخلتْ زوجتي فاطعمته لبنًا صافيًا، كنت أشاهده من بعيدٍ، وعندما شب قليلًا، صفعته على وجهه، قائلًا: أنا أبوك.

النخلة

قبل مرضي كنت أركض في كل مكان، أعدو في الصحراء لا أعير انتباهًا للشمس الحارقة، أغوص في عمق جبل الجليد. بدأت أعراض مرضي حينما وجدت أن مفاصل أصابعي تلتحم بعضها البعض، صار كل إصبع وحدة واحدة لا تنثني. في البداية تخليت عن القبض على الأشياء بقوة، ثم تخشب ذراعي؛ فتخليت عن حلمي أن أصبح ملاكمًا، فعدّلت مسار هوايتي، أصبحت عداءَ مسافاتٍ طويلة، مع الوقت تجبست رِجلي، ارتعبت كثيرًا من مصيري، أجلس بالساعات واضعًا عدة سيناريوهات لما سيحدث لي. توقف الجذع عن الحركة، تبعته الرقبة، طلبتُ من أمي قبل أن يتيبس لساني أن تضعني وسط الأشجار بالحديقة. صار جسدي وحدة واحدة.. لا حركة، غير قلبٍ ينبض، وعينٍ تتجول. حاولت الحركة مرارًا وتكرارًا، لكن بلا جدوى. بعد مرور وقتٍ كبير، امتدت ساقي إلى عمقِ الأرضِ، وتسلقت رأسي درجات الهواء، واستطال شعر رأسي. أرى بوضوحٍ طفلًا يدور حولي، يُشبهني في صغري، يُشير لأمي التي تبدو أصغر سنًا، يقول لها: أحب هذه النخلة يا أمي.

تقلص

لم أكن قصيرًا هكذا، عندما ولدت كانت قامتي تصل لعنان السماء، في سن الحادية عشرة هبطتُ قليلًا للسحاب، ناوشتني الرعود. أهرول في العالم منتشيًا، لا يوقفني جبلٌ عالٍ، أو يغرقني بحرٌ ثائر.

في سن العشرين، تقلص حجمي، صار لا يتعدى المترين. أحببتُ فتاةً لم أتزوجها، وتزوجتُ فتاةً لا أعرفها، وتقلص حجمي أكثر.

في الخمسين من عمري كان لدي سبعة أولادٍ، صرتُ ساعتها قزمًا صغيرًا لا يتعدى طولي نصف المتر. مع مرور الوقتِ أصبحتُ أغرق في شبر ماءٍ، صارت رأسي ملتصقةً بالأرض. والآن أذوب كالثرى وأعود لحضن أمي.

قمة

يقف أمام الجبل المرتفع، ينظر إليه بتخوف، يحادث نفسه: أستطيع ارتقاءه وغرس شارتي فوق قمته. يمر عليه رجلٌ يضحك ساخرًا: بماذا تفكر، هل تظن أنك تستطيع الصعود؟! تقف امرأته وراءه وتصيح: لا تصعد أرجوك.

يُغمض عينيه، يشاهد نفسه واقفًا بالأعلى وفي يده الشارة. يتقدم ويتشبث بصخرةٍ قوية، يضع قدمه في تجويفٍ صغير، يتنقلُ من صخرةٍ لأخرى، يقفز من مكانٍ لآخر، ترتعش يداه، ويتصبب العرقُ من جبينه. "يراها في مؤتمر للعمل، يخاف أن يحادثها." كاد أن يسقط، بتصميمٍ وعزيمةٍ يتقدم أكثر. "يقف أمامها، يسألها عن استراتيجية العمل." يقفز قفزةً كبيرة، تنقله لمكانٍ أعلى. "يوبخه مديره: أنت موظف فاشلٌ." يفقد توازنه، يرى وقوعه أمرًا حتميًا. "يقدم استقالته، يفتتح عمله الخاص." يعاوده الإحساس بالقوة، يتشبث أكثر بالنتوءات الظاهرة، لحظاتٍ ويصل. "يجلس معها في كازينو، يعطيها وردةً حمراء، وخاتمًا، يقول لها: تتزوجيني؟" يصل أخيرًا للقمة، يغرس شارته في قلب الجبل على موسيقى الزفاف، يلوح لها من فوقٍ، فترسل له قبلةً طائرة، فيردها إليها قُبلات.

جالس القرفصاء

يتحرك بعشوائيةٍ بين المباني العالية، يزرع شجرةً أمام إحداها، ويترك كيس نقودٍ أمام أخرى. يصيح به طفلٌ ينظر من نافذة بعيدة: أنقذنا؛ بنايتنا تحتاج للترميم. يتصنع اللامبالاة، بعد برهةٍ يُمسك بحفنةٍ من تراب، يقف أسفل النافذة ناظرًا إليه، يلقي ما بيده، ويعود حيث كان. يصرخ الطفل غاضبًا: أنت بلا قيمة، لا تفعل شيئًا. يبتسم له هازًا رأسه، ويلوح له بيديه، يغضب الطفل أكثر: أنت مجنون! لا تسمع ما أقوله.

عاد لحركته العشوائية، يترك كتابًا أمام إحدى البنايات، ويضع وعاء ماءٍ أمام أخرى. ما زال الطفل يصرخ متوسلًا إليه: أرجوك، افعل شيئًا، ليس لنا سواك. يتجاهل استغاثاته، ويجلس القرفصاء وسط الطريق.

ينزل الطفل مُسرعًا، يضع حجرًا فوق حجرٍ ويعيد البناء، تلمحه امرأة في الشقة المجاورة، تذهب وتساعده، يهرول عجوز ببطءٍ نحوهما، يناوله حجرًا آخر، يُعيدون الوضع كما كان. ينظر إلى الطفل وهو جالس مكانه، ويقول له: أحجارك التي تُقيم البناء.

دموع النسيج

المرأة الجالسة على ماكينة الغزل، تُرسلُ شمسَها نحو الركن المظلم. "تجلس وهي فتاةٌ ربيعية العمر، تبكي حبيبها الخائن، تستند على جدران الحزن، وتبكي دموع الفراق. تُشرق شمسٌ داخلها فجأة، فتتريض، وتغني أغنيةَ الصباح، وتبعث قمرها عبر الزمن وهي جالسة على ماكينة الغزل."

تبلل دموعها ثوب النسيج، فترى طفلًا وهميًا يلعب حولها، تُمسك بأحشائها الفارغة، تضرب الماكينة بقدمها، فيأتيها قمرٌ يضيء أحشاءها؛ فتشعر بإغماءة خفيفة، وتتمنى رمانًا ناضجًا.

المحطة الأخيرة

تخلعُ وشاحها، تنظر يمينًا ويسارًا، ثم تمر فوق القضبان، تنتظر قدوم القطار؛ ليخلصها من حياتها. ترى زوجًا صامتًا في ركنِ الصورة، تبكي بجواره وتئن. يتمدد الزمن فجأة، تصبحُ فتاةً صغيرة، جدائلها تتحرك يمينًا ويسارًا وهي تهرول، ينتظرها على شاطيء النيل، يعطيها غزل البنات الذي تحبه، تقول له: هل ستظل تحبني؟! فيجيبها: أنا لا أجيد سوى حبكِ. كانت آخر كلمات الغزل التي سمعتها، تزوجا وتلبسه جني الصمت. تسمع زمجرة القطار وهو قادمٌ، تختلط الأصوات مع همس أمها لها: الرجل الصموت نعمةٌ يا خائبة. تصرخ بوجهها، أنا أعيش مع الجدران، أريد أن أسمع صوتًا. نظرت لها أمها لائمة: أنجبي له طفلًا، يملأ حياتكما ضجيجًا كما تحبين. تعلمت الصمتَ بعدها، تعلمت الاحتماء بنظراتها من كل النظرات التي تفترسها، وتلك الأصوات القبيحة التي تنبش خصوصيتها: ألا يوجد شيءٌ في السكة؟!

القطار يقترب، فتحت ذراعيها له، كأنها تستقبل طفلها الذي انتظرته طويلًا، أخفاها داخله، أبعدها عن كل النظرات القاتلة، وتركها تنزل في المحطة الأخيرة.

الهوى غلاب

يقول السبّاحُ وهو يعبر بحر المانش: الهوى غلاّب. يمر بجواره دلفين لامع البياض، يسبقه ويَرُد صدى كلماته إليه؛ فيرى فتاةً تعبر الشارع، شُغِفَ بها حبًا؛ فكبرت فجأة، رأته بين حوض السباحة بطلًا، أغواها بضرباته؛ فأحبته. الموجُ يجلده، فيصيح بأعلى قوته: أحبكِ. تشده الدوامة بداخلها، يشعر بالاختناق، يرى أحرف كلماته حوله "ا لـ هـ و ى غـ لا ب" ، يترك جسده بانسيابية عالية؛ فتدفعه الدوامة خارجها. تبكي أمامه، يُصمتُ أنينها داخله، تقول له: لا تتركني الآن. يقف مودعًا إياها، ويدفع بمبلغٍ من المال في يدِ النادلِ ويرحل. يُحيطه الصدى، يزلزل كيانه، يسمعه مقلوبًا "غلاّبُ الهوى"، قوى تجذبه للأسفل، تغلبه، لا يستطيع الفرارَ، يملأ الماء جوفه، يُثْقِل وزنه، ويُجَر للأعماق.

شقٌ زمني

فتح شقًا في الزمن، ولج منه لنقطة لا تعرف الوقت، جلس القرفصاء يشاهد صورًا زمنية جاءت من المجهول..

يتعلق بثوبِ أمه سائرًا خلفها، وفي لحظة شرود يرى عيون حبيبته وهي يافعة، تتبعها روحه، ينظر فجأة لأمه فيجدها امرأة أخرى، ينفطر قلبه باحثًا عنها، لكنه لا يجدها، فيحاول أن يجد حبيبته، فتسرقها الشمس في شعاعها الذهبي.

يخرج من بين الثرى شابًا وسيمًا، تتكون أمامه من قطرات المطر صورة حبيبته، تمسك بيده، تشير له لأرض الأحلام، وتنام على كتفه، وتتلاشي الصورة.

تظهر له مشاهد متعددة.. يخترق جموع المتظاهرين، يصيح بأعلى صوته: الشعب يريد إسقاط النظام. تنهال عليه قنابل الدخان والغاز المسيل للدموع من كل مكان، يسقط مختنقًا، فتمد له حبيبته يدها قائلة: لا تخف؛ قوة قلبك ستحطم كل الحواجز.

يقف في ركن الفصل، يعاقبه المدرس: ارفع يدك عاليًا. يرفض؛ فتنهال على جسده الضربات. يدخل الجامعة، يراها بين المدرجات باكية، يمسح دموعها بيديه قائلًا: لا تخافي يا حبيبتي؛ فسأظل

بجوارك. تركته في أول الطريق، أعطته صرة مثقلة بالذكريات، ورحلت.

يجلس في الظل حزينًا، يغني، يتصبب عرقًا من حرارة الشمس التي تنساب من القلب المعلق في السماء. يقوم من قرفصائه، يلامس الصورة، وتتيه عيونه في الأطياف، يحمل بقايا عمره، ويرحل من الثقب الذي ظهر في وسط الشق، تظهر يافطة عملاقة للرحيل، عليها صورته مبتسمًا، مكتوبٌ أسفل منها "مات قبل أن يولد"

الظلام

لم أكن شريرًا بطبعي، ولدت طفلًا ناعمًا، ألعب مع الفراشات الملونة ولا أطاردها، أُطعم صديقي الديك كل يومٍ، حتى هاجمه الذئب، فصل رأسه، ونظر لي نظرةً قاسية، وجرى به نحو الأرض. هي النقطة السوداء الأولى بحياتي، ظللت أبكي وأبكي، لم ينقطع بكائي سوى وأمي قادمة إليَّ وهي تحمل ديكًا آخر..لكنه كان ملولًا، ينظر لي بحزنٍ دائمًا، فأردت استبداله، ففصلت رأسه بيديّ، لم تحضر لي أمي ديكًا آخر، تركتني خلف النافذة في الظلام وحدي. تسلل بجواري الذئب نظر لي نظرة رضا، ثم رحل عبر تجويفٍ بالجدار.

ماتت أمي في حادثةٍ على الطريق، تركتني وحدي..

صرت أرى وجوه البشر دجاجاتٍ ملولة، تجثم على صدري زهقًا وقرفًا.. فصلت رأس زميلي في المدرسة، دفنت جسده، ولعبت برأسه الكرة، ومن ثم حفرت لها قبرًا صغيرًا وبكيت عليه.

أُحب الظلام والفوضى، أحب الولوج لداخل روحي. بردهة قلبي تماثيل لا تتحطم، لكنني حطمتها، علمت نفسي ألا أتعلق بالأشخاص ولا بالأماكن، كلما صُنع داخلي صنمًا أكسره، أحطمه، ثم أبكي قليلًا لفراقه.

أنا الطفل الذي لا يتذكر وجه أمه، لا أتذكر شكل بيتي الأول، أحجب الشمس بردائي الأسود، لكنني أبكي عندما أرى فراشة تعبر الطريق.

سلم السماء

يقف على حافة جبلٍ، يمسك بأقلامه الرصاص، ويلقيها بأقصى قوته، يحاول تلوين الأحجار والصخور بألوانه المائية، يعمل بدأبٍ لا يكل. الشمس تحرق جبهته، والليل يجلده ببرده القارس، يرسم على صخرة عملاقة صورة وجهها وهي تبتسم، يبادلها الابتسام، وبسرعة يمحو وجهها وهو يبكي.

يضع أحجارًا فوق بعضها، ويقول لنفسه: سأصنع درجًا أصل به للسماء.

يمر عليه عابرٌ يقول له: أنت مجنون!

يشيح بوجهه عنه ويكمل عمله، يمسك بملح طعامه ينثره في وجه العابر المشاكس الذي رماه بحجرٍ، فأصابه وأدمى رأسه. بعد فترة جاوره طائرٌ جميل، عشش على صخوره، وارتاح بين ذراعيه وهو نائمٌ، الطائر صار طائرين، أتى أرنب وأرنبة سكنا بالقرب منه، نبتت نبتة صغيرة من بقايا الفاكهة التي يأكلها، حفر بئرًا، امتلأت الأرض من حوله بالحشائش والأعشاب، كبرت النبتة وتفرعت، صار المكان غابة جميلة، وهو ما يزال يبني سُلَّمه ليصل للسماء.

أذرع متساقطة

يستيقظ صباحًا، يتناول إفطاره، ويذهب لعمله في مصلحة الأحوال الشخصية، يسير كل يومٍ في نفس الشارع ويعود منه، لم يفكر لحظةً بأنه قد يكون هناك حياة أخرى.. الروتين! هو الاستقرار، كان مستمتعًا بأن سفينته لا تتمايل يمينًا ويسارًا.

إلى أن استيقظ يومًا، ليجدها بجواره، نصفٌ من القمر، كيف جاءت، كيف تنام هكذا كالملائكة؟! لابد أنها نصفه الذي انبثق منه كحواء، تفاحته التي ستغويه للخروج من جنته. لم يجسر أن يوقظها، ظل يحدق بها وقتًا طويلًا، شعر بأنها تتواجد داخله أكثر من واقعه الملموس. حاول أن يكمل حياته ويتناساها، قام ليفعل ما يفعله كل يومٍ.. حضّر إفطاره، وأخذ يلوكه، شعر أن الطعام هذه المرة مختلفٌ، لم يستطع إخفاء ابتسامته وهو يمسك حبة طماطم، ويأكلها دون تقطيعٍ كما كان يفعل من قبل.

ضبط نفسه وهو يحضّر قهوةً على غير عادته في احتساء شاي الصباح. هبط الدرج ليلحق عمله؛ ليجد أن الليل مازال قابعًا بالطرقات، فرك عينيه كثيرًا، وهو يحدق بساعته التي تشير للسابعة صباحًا. ما يشعر به أكثر من الخوف.. الخوف المصاحب لعدم الفهم شيءٌ قاسٍ. كل الأشياء في حياته تتغير فجأة، هو حتى لا يفهم ما سبب امتلاء جسده غير المبرر، كل ما يتذكره نومه

بالأمس بعد أن قام برياضة المساء، ليستيقظ صباحًا.. أو ليلًا، لا شيء مؤكد، ليجد تلك الفتاة نائمة بجواره.

سقطت نظارته، فانحني ليلتقطها، فسقط ذراعه بجوارها.. ارتد للوراء عندما وجده يتحول طفلًا صغيرًا، يشبهه إلى حدٍ كبير، غير أن شعره يشبه كثيرًا تلك المرأة القابعة بفراشه.

بابا! نطقها الطفل، وهو يلتقط النظارة ويعطيها له.. نظراته الخائفة، المرعوبة، تكبله عن الحركة. يغمض عينيه، علّ كل هذا ينتهي.. منذ متى يرتدي نظارة، ومن هذا الطفل الغريب؟!

تُشرق الشمسُ فجأةً، تومض بقوة، بحركة لا إرادية يداري عينيه، وعندما أنزلهما مجددًا، وجد كل شيءٍ تغير، الزحام صار أكثر، البيوت صارت بشكلٍ غريب، مجرد مكعبات بلا روح.. ما هذا العكاز الذي يستند عليه؟! ظل واقفًا مكانه، لا يتحرك، لا يقدم خطوة أو يؤخرها، لا يغمض عينيه، أو يحرك ذراعيه، يخشى حدوث شيءٍ آخر مع أي حركةٍ غير مدروسة. أطال الوقوف وعدم الحركة، مات كشجرة واقفة. صار موضعه مزارًا لأبنائه العشرين.. يأتون كل جمعةٍ يتحلقون حوله، يتذكرون طفولتهم، وسنواتهم الأولى، يأكلون طعامهم المفضل، وتتساقط أذرعهم.

صلاة الماء

لم يكتشف موهبته إلا حينما وصل به اليأس مداه، فتح النافذة وقفز من الطابق الخامس، وهو في الهواء، تنازعته الأفكار، هل عليه الرحيل الآن، أم أنه أخطأ في قراره؟! هل يحاول التحرك في الهواء ليسقط على سيارته المركونة أمام العمارة، أم عليه أن يعود بالزمن قبل فتح النافذة ويعدل عن قراره؟! لكن كل هذا لم يحدث، سقط في وسط الشارع، لكنه كان كالحلم الغريب، جسده لم يمس بشيءٍ، رآه الناس، فتحلقوا حوله مذعورين، لكنهم عندما رأوا ما حدث، عدّوه وليًا وقديسًا.. صار له موالون، يزودون عنه، وينفذون ما يتمناه.

يجب عليه أن يجدد معجزته لهم كل فترة، حتى لا يصيبهم الوهن، أو يظنون أنه خُيّل إليهم، كان يفتح النافذة ويقفز، يهبط واقفًا، لكنه في مراتٍ عديدة يختل توازنه، ويسقط على ظهره، ظنوها صلاةً، فكانوا يستلقون في الطرقات على ظهورهم، لا يهمهم الشمس، أو صقيع الليل.. صلاةٌ نهاريّة، وأخرى ليليّة.

لم يعرف سر معجزته أبدًا، لكن الأمر أعجبه.. يتمنى، فيحققون له مراده، ليس عليه سوى أن يفتح النافذة كل فترةٍ، ويقفز منها؛ ليدلل على أنه مازال صنيعة للمعجزة، وذهب البعض في غلوهم، فرأوه صانع المعجزة بذاته.

طلب منهم أن يبنوا له بيتًا كبيرًا، ففعلوا، ثم أمرهم أن يشقوا حوله نهرًا عذبًا.. ففعلوا. لكنه لم يجد اللذة الكافية، طلب منهم أن يضاجع زوجاتهم.. في البداية تذمر الناس، لكنه لم يفعل سوى أن عبث بوجهه، وقفز عدة مراتٍ من النافذة. صاح أحدهم: لقد أغضبنا مولانا المبارك.. سيحل علينا لعنته.

ساقوا نسوتهم إليه، كانت قوته الجنسية معجزته الثانية، فكان يطوف عليهن كل يومٍ، أنجب كثيرًا من الأولاد، لم يُنسب إليه أي منهم؛ فالولد لزوج المرأة.. الولد للفراش.

شَبّ أحد الأطفال من صلبه، ظل يقول لأبيه للفراش: يا أبي.. كيف نرضى بهذا الذُل.

فيقول له أباه: رضا مولانا، من رضا الله.. ولا ذل في مرضاة الله.

أُشيع عن الشاب بأنه يمشي على الماء، فبعض الأهالي شاهدوه، وهو يسجد في منتصف النهر، لا يبتل، ولا يغرق. كتم الناس داخلهم أن الشاب أخذ من بركات مولانا، فكل الأبناء أبناؤه، وهو بالطبع واحد من صلبه.

حاول الشابُ أن يخبرهم أن الذُل ليس من الله. في البداية زجروه على خوفٍ وخشية؛ فهو بالنهاية صاحب معجزة هو الآخر.

قال أحدهم: دعوهما لبعضٍ؛ فما شأننا بأصحاب المعجزات.

وقف أمامه قائلًا: كيف تفعل ما تفعله.. أنت لست وكيلًا لله؟

قال بصوتٍ هادئ يملؤه الحكمة: أنا صانع المعجزة، يتقربون لله بي، فلا تكفر يا ولدي.

قال الشاب: إذا أريني معجزتك.

فتح النافذة وقفز، لكنه هذه المرة.. مات. تهشمت رأسه، وتكسرت أضلعه، وسال الدم في الطريق. تعجب الناسُ، صاحوا بصوتٍ يملؤه الإيمان: الشاب هو مولانا الجديد.

_ نحن عَصَاك، يدك التي تبطش وتصنع، نصلي مثلك، ونتقرب من الله بك.

كانوا يرونه كل يومٍ في الصباح، يمشي على الماء، ويسجد في المنتصف.

_ إنها الصلاة الجديدة.

فعلوا مثله، اخترقوا البحر متجمعين، في البداية خافوا من أن تغمرهم المياه، لكن صاح أحدهم بخشوعٍ: صلاة الماء جماعة يا مؤمنين. أدركهم الغرق جميعًا، وهم يرددون بصوتٍ واحد: صلاة الماء جماعة يا مؤمنين، صلاة الماء جماعة يا مؤمنين.

لقد حدثت المعجزة

أقسم لها أنه سمع صوت الزرافة، ردت عليه: أنا لست مجنونة؛ فالزرافات بلا صوتٍ.

يقول لها: سمعتها تغني بالأمس، ظلت واقفة على الجسر، تشبّ لفوقٍ، وكأنها تريد التقاط نجوم السماء.

تنظر إليه بدهشة قائلة: شفاك الله وعافاك.

يدور في الطريق متتبعًا آثار الزرافة، يناديها أن تأتي معه لتشاهد المعجزة. الطريق طويلٌ، والشمس شابةٌ، مرا على المروج المتفحمة والبحيرة الجافة، وجدا بستان النخيل لم يعد يثمر.

صرخت به بغضبٍ: أجئت بنا إلى هنا، لنرى الخراب؟

ربت على كتفها، وأشار بيده إلى بقعة خضراء تقف في وسطها زرافة تنبعث من حنجرتها موسيقى ساحرة، برقت عيناها، وصاحت به: يا الله، لقد حدثت المعجزة!

عجز

يجلس ساكنًا، يمارس طقوس اليوجا، يتحرك الكون بطاقته الداخلية، تدور الأرض حول ذاته، وتنحني الشمس مهابةً له، تخترق روحه طبقات الأرض، وتغوص في أعماق البحار، يقف في وضع المصلوب على أعلى قمة.

يرتفع عن الأرض مترًا، يدور وهو ما يزال يجلس القرفصاء، ويدلي يديه على جانبيه. تخترقه صورته وهو يحاول أن يقاوم عجزه عن المشي.. يضرب كرسيه المتحرك بيديه.

لاعب السيرك

يسير على السور كلاعب سيرك محترف، الطريق طويل، والنهاية طائرٌ يطير أمامه ولا يتوقف. جزءٌ من السور مكسورٌ، يتوقف قليلًا حذرًا، يقفز، يكاد أن يسقط، يوازن نفسه بيديه، ينظر للخلف، ويحمد الله.

شجرة تفاح تمد أفرعها بجانب السور، يقطف تفاحة ويقضمها، ويترك نصفها لحبيبته التي ربما تأتي خلفه. يعود لمطاردة طائر النهاية، يأتي فأرٌ بسرعة خاطفة، ينسل من بين قدميه؛ فيختل توازنه، فيتشبث بالحواف. يقوم من جديد، بكل إصرار يكمل المسير. يتوقف الطائر لحظة، ليشرب، فيصل إليه، يمسكه، ويغني معه أغنية الوصول.

سفينة الميلاد

يتحرك بخفة على سطح السفينة، يصعد على الساري، يُعدّل الشراع، يبتسم للقبطان، وهو يقلد حركة يديه. عالمه سفينة وماء، كالبوصلة يعرف الاتجاهات ودروب البحار، الشمس نهارًا رفيقته، والنجوم والقمر ليلًا أصدقاؤه.

يقول له البحار العجوز: لقد ولدت على سطح السفينة، وماتت أمك بعد ولادتك مباشرة، لم نعرف أحدًا من أهلك؛ لذلك بقيت هنا.

كل ما يعرفه عن اليابسة، مجرد صور لزحامٍ شديد عند الموانئ، وأحضان للمسافرين على الأرصفة. يشعر برهبةٍ شديدة كلما اقترب من اليابسة، لم يطأها، ولم يفكر أن يفعل.

اقتربتْ السفينة من ميناءٍ عملاق، رآها تُلوّح له من بعيد، يلتفت يمينًا ويسارًا: هل تقصده؟! فتاةٌ ملائكية الوجة، حنونة العينين، تناشده نظراتها أن يهبط لليابسة، يضطرب قلبه هلعًا، هناك شيءٌ يدفعه للنزول من على سطح السفينة، يشيح بوجهه عن الفتاة؛ حتى لا يضعف ويهبط لحتفه.

تأتي كل يومٍ تنظر إليه وترحل، بدأت السفينة بالتحرك مرة أخرى مغادرة، رآها تبكي وهو يغادر، ضاع خوفه فجأة، هبط مسرعًا

نحوها، لم يدرِ إلا وقديمه فوق الأرض، شعر بدوار اليابسة، ترنح يمينًا ويسارًا؛ فأسرعت إليه، وأمسكت بيديه.

يتحرك بصعوبةٍ كطفل يتعلم السير لأول مرة، لكنه بعد عدة خطوات، بدأ يتحرك بنشاط كبير، شعر بحريةٍ لم يألفها من قبل ، ظل يجري بين الناس، ويقفز فوق الرصيف.. نسي الفتاة والسفينة، وأحب الأرض.

مستقبل

في التاسعة من عمره اكتشف بأن لديه موهبة رؤية المستقبل. أصبح لا يذاكر سوى الامتحان الذي يراه، برع كثيرًا في المسابقات وحل الألغاز. كانت موهبته سر سعادته، إلى أن رأى موت أمه، أخذ يبكي بحرقة، ظل بجوارها طوال الليل، يغالبه النوم، سقط أخيرًا نائمًا، استيقظ ليجدها فارقت الحياة.

بعدها قرر الرحيل لجزيرة نائية، جزيرةٌ بلا مستقبل..

رأى قتالًا رهيبًا في كل أجزاء الجزيرة، لقد تحولت موهبته لرؤية الماضي، يحاول أن يصمّ أذنيه ليلًا عن الصرخات التي تأتيه من كل مكان. صنع قاربًا كبيرًا نسبيًا وأبحر، سيبقى وسط الماء، بلا مستقبل أو ماضٍ.

يرى سفنًا قديمة الطراز، وأخرى حديثة، يرى أفيالًا تطير، وزرافات استبدلت سيقانها بعجلات هوائية؛ امتقع وجهه وهو يقف على حافة المركب، ينظر حوله بتوترٍ كبير، أصابه الدوار، وأوشك على السقوط. رآها مضيئة من بعيد، تسير على الماء، اقتربت منه، ومدت له يدها، فأمسكها، وسار معها على الأمواج.

لعنة طائرة

يمرح بين المروج الخضراء الواسعة، يصعد شجرة التفاح كالقرد ينتقل من فرعٍ لآخر، يسبح في الجداول الصغيرة كسمكةٍ محترفة، يطارد الأرانب الصغيرة كولدٍ مشاكس.

رأى من بعيد طائرًا يطير كالفراشة، ما أن اقترب منه حتى اتضحت الرؤية.. كتاب مفتوح طائر، حاول الإمساك به، لكنه راوغه وهرب منه، طارده عبر الأشجار، حتى وصل لحدود أرضه؛ فتوقف. هل يستمر خلفه، أم يعود لمكانه؟! فضوله يقتله. ماذا كُتب بداخله؟! قرر مطاردته في أي مكان، ما أن عبر الخطوط الفاصلة، حتى شعر بألمٍ شديد في كل أجزاء جسده، لن يتوقف الآن.

أُنْتُزِعَتْ أظافره بقوة، صرخ بشدة، وسقط أرضًا، تحامل على نفسه، وقام مرة أخرى محاولًا الوصول للكتاب، ضُرب أمامه حائل، وجُذب إليه كطفلٍ معاقب في المدرسة، رأى كل آثامه الماضية فجأة.. صديقه الذي دفعه من فوق الدرج، لأنه يختلف معه في ماهيّة العالم، حبيبته التي تركها وسط الشارع، لتدهسها سيارة طائشة، تَهَرُّبه من أمه ليلة ميلادها وعدم انتباهه لمرضها. صرخ بأعلى صوته: أريد فرصةً ثانية، أريد فرصةً ثانية.

يمرح بين المروج الخضراء الواسعة، يصعد شجرةً عالية، تناديه حبيبته وهي تحمل كتابًا يشبه كتابه، يذهب إليها متباطئًا، يتوقف أمامها، والدموع تُغرق وجهه قائلًا: لنبدأ من جديد.

مومياء

مومياءٌ على الطريق، تستنجد بالمارة، وترتشف قبل عودتها للحياة كأس نسيان. ميلادٌ جديدٌ ووجعٌ متبقي من حياةٍ أخرى، تهاجمه سكرات الحياة وصحوتها، ينظر للسماء ويبكي: هل حانت الحياة؟! يحدق في الفراغ، ويتمتم بكلمات غير مفهومة، ويستقبل أولى أنفاسه.

تجمد

لم أكن أتصور أن أستيقظ بعد كل هذه المدة، ظل جسدي متجمدًا سنوات طويلة.. رأيت كل شيءٍ يدور حولي، وأنا بلا حولٍ أو قوة. ينبض الآن قلبي سريعًا، وأنا أعبر الشارع، أشعر بجوعٍ شديد، ولا أعرف هل عليّ الأكل، أم أنتظر قليلًا حتى تتعود المعدة على الطعام؟!

لا أعرف لماذا ينظر إليَّ الناس بتلك النظرات الغريبة، كأنّهم رأوا شبحًا أو عفريتًا.. ألم يروا من قبل رجلًا نصف مجمد؟! توقفت عند الجسر، لا أستطيع عبوره من شدة الزحام، تذكرت وقفتي هنا بالساعات، أنتظر أن يجود عليّ أحدهم بالعمل؛ لأعود في نهاية اليوم محملًا ببعض الورقات النقدية التي تمنحني الكفاف. لكن في هذا اليوم لم يأتِ أحد، وقفت حاملًا أدواتي دون جدوى، في نهاية الأمر ألقيت بكل ما معي بالنهر، وتوقفت قليلًا، كنت مستعدًا حينها لأن أُنهي حياتي، لكن هناك شيء منعني من إلقاء جسدي المنهك في الماء، ألقيت ساعتها قميصي فقط، وبعد عدة ساعات سمعت الأصوات التي تبكيني، حينها شعرت بأنني تحررت، بأنني أولد من جديد.

في أول ساعة سرقت قميصًا وبنطالًا من على حبل غسيلٍ مشدودٍ أمام بيتٍ صغير، وفي الساعة الثانية سرقت الفكهاني، وبالليل سرقت

من أحدهم سكينًا، قمت بعدها باستخدامها لسرقة فرخة مشوية من محل بوسط المدينة.

تحللت من كل شيءٍ؛ فصارت كل الأشياء متاحة، شعرت بالتحرر وبميلادي الجديد.

أصبحت مهندم الملابس، باش الوجه.. رأيتها تعبر الجسر، خطفني جمالها، وابتسامتها التي تُغير السُحب الغائمة إلى اللون الأبيض الناصع. كنت كالمنوم، أتتبعها وهي تجتاز الشوارع المزدحمة، حتى سارت في شارع خالٍ. أحست بي؛ فتوقفت فجأة، ونظرت لي قائلة: لماذا تتبعني؟! قلت لها: أنا لا أتبعكِ، بل أتبع قلبي. ضحكت وكان في ضحكتها هلاكي. أخبرتها بأنني سأسطو اليوم على محل اللحوم المجمدة، فوَشَتْ بي، وعندما دخلتُ إحدى الثلاجات، أُغلق بابها عليّ؛ فتجمدت، ولكن قلبي لم يمت، ظل يدق، ينبض بعنفٍ تارة، وببطءٍ شديد أخرى.

رحل صاحب المحل، وجاء ابنه بدلًا منه، ثم حفيده.. تبدلت الأشخاص وجسدي قابعٌ في مكانه، إلى أن جاءت فتاة العائلة، الوريثة المتبقية، فقامت بإغلاق الدكان وتفريغ كل محتويات الثلاجات. تُركت بالخارج، فانصهر الجليد. في البداية تحركت كمومياء محنطة، ثم ازدادت حركتي، حتى أصبحت عاديًا.. الجوع كما هو، وكأن الشقاءَ مكتوبٌ عليّ، الجوع تارة، وخيانة الفتاة نصلٌ لم يُنتشل من قلبي، ذهبت إلى قبرها فنبشته، وأحرقت النباتات التي

تنمو فوقه، وذهبت لقبر صاحب المحل الأول، حفرته وجعلت عظامه عرضة للكلاب الضالة، ثم ذهبت عند الجسر، أسترجع كل التاريخ الذي مر.. مازلوا هناك، ينتظرون من يجود عليهم بعملٍ يومي، يكفيهم الكفاف، أما أنا فلن يكفيني شيء سوى إحراق هذا العالم، وتدمير هذا الجسر.

في النهاية ومع انتشار قوات مكافحة السرقة، جلست بجوارهم أنتظر؛ علّ أحدهم يعطف عليّ ويمنحني قوت يومي. لم أر الجليد وهو يتسلق جسدي الجائع، جُمدتْ ساقاي، ثم انتشر الجليد في جذعي، ثم صعد أخيرًا إلى رأسي.. أرى الزحام حولي بعيونٍ زجاجية، متجمدًا بلا حولٍ أو قوة.

بلا رأس

جندي بلا رأسٍ، لا يفكر إلا في رؤية ابنته، أو ترك رسالة أخيرة لها، ظل يبحث عن رأسه بين الأجساد المكدسة، يتحسس هذا، وينتقي من الرؤوس الملقاة.

هذا الشعر لا يشبه شعره، وهذه العيون أضيق بقليلٍ، هذه الأنف أكبر من أنفه، وهذه ليست أسنانه. ظل هكذا لوقتٍ طويلٍ، حتى وجد واحدةً تشبه رأسه، قام بوضعها فوق رقبته؛ فرأى بيتًا واسعًا، لا يسمع صوتًا به غير أنين أمٍ باكية، وأبٍ أعمى يناشد الله أن يعود إليه ابنه، ظل يدور في الصور، وأنحاء البيت. رأى طفولته بالخارج، سمع صوت حبيبته وكأنه يسمعها لأول مرة.. ظل يبكي ويبكي كأنما زُرع بقلبه الحزن، فشبّ شجرةً عملاقةً، لا تتوقف عن النحيب.

قام بالتخلصِ سريعًا من تلك الرأس، شعر بأن السماء تمطر، فتح ذراعيه ليستقبل الماء الرطب، عليه البحث عن صديقٍ بين الأحياء، ينقل سلامه لابنته، يخبرها أن الوقت داهمه دون أن يمنحها قبلةً أخيرة، وأن وجع فراقها أكثر ألمًا من فقدان رأسه.

الحربُ يا ابنتي شرٌ كبيرٌ، وأنتِ زهرةٌ؛ فابتعدي.. سلامٌ عليكِ يا بُنيتي الصغيرة، ولتكبري بعيدًا عن وجع الحربِ.

وجد رأسًا ملائمة، لا تشبهه كثيرًا، لكنه ظن أنه يستطيع البحث بها عن رأسه الحقيقية.. بشرةٌ سمراءٌ قابعةٌ فوق جسدٍ أبيض البشرة، ينطق فجأة بكلامٍ لا يفهمه: من المؤلمِ أن يحمل الإنسان فوق جسده سر شقائه.

يرى أرضًا واسعة، حقولًا خضراء، ومزارعين باليومية، يمنحون الأرض عرقهم، يتحملون قساوة الظروف، وقسوة صاحب الأرض الذي يصرخ بهم: أنتم الأُجراء في أرضي، فاعملوا بضميرٍ حتى تأكلوا من كدكم. لا أحب الكسل، ولا العمل غير الجاد.. أنا صاحب الأرض.

يقف أمامه معترضًا: بل نحن أصحاب الأرض، مهما كنا ضعافًا ولا نقدر أن نستعيد حقوقنا.. نحن أصحاب الأرض الحقيقيون، وأنت مجرد سالبٍ لها، لصٍّ للخيرات، ومانعٍ للحب.

السياطُ تنتزع روحه، تترك قلبه منهكًا، فيصمت اللسانُ للأبد.

الحربُ يا أهلي عذابٌ، ولا أقدر أن أكون مقاتلًا كل الوقت.

ينتزع تلك الرأس من فوقهِ انتزاعًا. هل عليه أن يعيش مأساةَ كل رأسٍ، هل عليه أن يتمدد فقط ويموت. قد تُرْسِل حمامةٌ سلامه لابنته، تعفيه من الحضنِ الأخير، وتخبرها أن الحروب تقتل الآباء، وتُيتم الأطفال.

الشمسُ تجفف الدماء المتدفقة من عنقه، تغنيه عن البحثِ في جيوبه عن منديلٍ، أو قطعة قماشٍ، يمسح بها دماءه، أو قد تكون دماءً عالقة من رأسٍ ألقاها منذ قليل.

"كُنت أتخيل وسط الحرب، عودتي إليكِ، تشبثكِ بيدي وأنا أصحبكِ للمدرسة، أو هرولتكِ نحوي حينما أنتظركِ في نهاية اليوم. تخيلتُ قسوتي عليكِ، وعنادكِ معي حتى تجبرينني على الاعتذار إليكِ. تخيلتُ قبلاتي المتكررة لوجهكِ حينما تنجحين، رأيت احمرار وجنتيكِ خجلًا، وأنتِ تخبرينني أن رجلًا ظهر في الأفق وهو قادمٌ للبيتِ هذا الأسبوع.. تخيلت كل ذلك معكِ يا ابنتي، والآن أنا بلا رأسٍ، فكيف ستسمعين صوتي، وكيف ستكتشفين نظراتي الباكية لفراقك؟!"

كل الرؤوس المقطوعة لا تكفيه، لا يريد سوى رأسه هو، لا يريد سوى ذاكرته الخاصة. بيدٍ متوجسة أمسك رأسًا أخرى، لا يأمل أن تكون رأسه، لكنه لن يملّ من المحاولة.

يقف فجأة صارخًا بامرأة باكية، يخبرها أنه لن يطلقها، وسيتركها معلّقة. يخرج للمزارعين بوجهٍ عبوسٍ قائلًا: أنا صاحب الأرض. يرى الجميع أعداءه، يدرك قسوة الصراع، فلن يسلم نفسه لبعض الرعاع، سيظل ضاغطًا على رؤوسهم. يخبره صاحب البشرة السمراء أنهم أصحاب الأرض الحقيقية؛ يقهقه بصوتٍ عالٍ، ويأمر رجاله بأن يجلدوه. لن يُلقي هذه الرأس أبدًا، لقد تعب من دور

المظلوم، عليه الآن أن يجرب أن يكون ظالمًا.. هل هو ظالمٌ فعلًا؟!

"أنا مجرد مدافع عن نفسي ضد قسوة الرعاع، لن أترك زوجتي تتحكم بمصيري أبدًا.. أنا صاحب الأرض الحقيقي."

يستفيق ليجد نفسه في قصره، تصرخ امرأته به: لو عندك كرامةً طلقني.

ينظر للصور حوله، والجدران المعلقة عليها لوحات فنية، لا يفهمها كثيرًا.. يقول لها بصوتٍ تسرب إليه بعض الحنان: لكِ ما تريدين. تنظر إليه باستغرابٍ، لا تصدق تحول شخصيته.

تتحرك حوله صورة طفلة، لا يعرف أين رآها من قبل، تقول له بصوتٍ هامس: أنا أحبكَ يا أبي. فيخرج للمزارعين، يقف بينهم بحصانه ناصع البياض، ويقول لهم: أنتم أصحاب الأرض الحقيقيون.

مسرح

تقف أمام المرآة قبل أن تصعد على خشبة المسرح، تتحسس جسمها، لقد زاد وزنها، تلمسس وجهها، لقد تجعدت بعض المناطق، فتضع المزيد من المكياج بتوتر. خرجت تقدم رِجْلًا وتؤخر أخرى، ظهرت فصفق الناس في وصلةِ حبٍ لفنانتهم القديرة، ألقوا إليها باقات الورد، وأرسلوا القبلات يحملها الهواء.

يدور المسرح بها، تشعر أن الجماهير تهاجمها. ترى الزمن بالأسفل يشاهدها، فتتحجر الأغنية في نفق روحها. صمت الجمهور، لكن الأصوات داخلها لم تصمت. عادت للوراء خائفة، لم تجده خلفها يُؤازرها كما فعل في أول مرة وقفت على المسرح. اختارت الأضواء والشهرة، وتناست حياتها وحبها الوحيد. لوهلةٍ ظنت أنه يمكنها العودة للوراء، والتشبث بأحبال الأمل الذائبة، لكن الدوار غافلها من جديد.. فسقطت فاقدة الوعي.

الساحرة

يحمل مج الشاي المحلى الذي يُغير مرارة يومه، يمسك به بقوة ناظرًا ناحية الأرض الخضراء، لقد غابت بيضاء الثلج هناك، فُقدت منذ ثلاثة أيام، يخشى عليها من الساحرة، ومن الأقزام.

يتصفح بريده الإلكتروني بحثًا عن رسالةٍ منها، لكنه لم يجد سوى رسالة الرحيل، هل يخترق الغابة من أجلها؟!

حمل أشياءه وخرج للغابة، الأسد حارس البوابة منعه من الدخول، فقام برشوته، حُرّاس الأشجار يقفون كالأفرع المائلة، اتجه نحو جدول ماء، وروى أرضه العطشى، قام القرد برميه بثمرة موز، فأخذها وأكلها، نظر للشجرة وشكر مقدم المنحة؛ اغتاظ القرد وتمنى لو كانت الثمرة حجرًا يشج به رأسه.

ينادي عليها، فلا يجيبه سوى صدى صوته. خرجت له الجنية أم الشعور من البحيرة، أشارت له ناحية الغابة المظلمة، لم يخف، سار يحمل مشعل ضوءٍ، يرسم خطًا منيرًا في صفحة الليل، وتتراقص الوحوش حوله، لكنه يكمل المسير.

يُخرج مج الشاي، ينزع عنه غطاءه، يشرب ما تبقى منه، وينظر ناحية البيت، يتخيل هيئته، ويتذكر كلبه المحبوس داخله. من سيطعمه في غيابه؟!

يسمع صوتها فجأة، يأتي من عمق الظلام، يهرول ناحيته، يجدها تقف بابتسامتها الشفافة قائلة: لقد انتظرتكَ طويلًا. تفتح له ذراعيها، فيُلقي جسمه المتعب بينهما. خلف قناعها يسمع ضحكات الساحرة وهي تنقضّ على رقبته.

اختفاء

تضحك الأشجار، وتهتز فرحًا، تضيء الثمرات كأنها أضواءٌ سماوية، يقف الضفدع مغنيًا أوبراليًا، ينحني لي لأمرّ، فأقف بجواره، محييًا جمهور الحيوانات.

غنوةٌ لا تعرف اللغة، وموسيقى تخترق القلب، وحيوانات عاقلة تردد اللحن بترانيم حبٍ، تحشر زرافةٌ أنفها في المساحة الضيقة بين الأشجار، تُلوّح بأذنها لي تريد المشاركة في الغناء، أصعد على جذع شجرة جافٍ حتى أصل لأذنها، وأخبرها أنها بلا صوتٍ.

رقصٌ إيقاعي، ونغمةٌ راقصة تطول حولنا، حصانٌ بريٌ يظهر في الأفق، يوسع له بقية الحيوانات حتى يقف قبالتي، يضرب الأرض بحافره مرتين، مصاحبًا ذلك بنفثة هواء من فمه، يضبط الإيقاع كما يريد، ويبدأ في الرقص، تتملكني النشوة، فأرقص أنا أيضًا، أقفز قفزات عشوائية في البداية، ما تلبث أن تُضبط مع النغمات.

يسود الصمت فجأة، تعبر المكان رياحٌ خفيفة، فيتحرك كل شيءٍ ببطءٍ.. الأشجار، الحيوانات، وحتى جداول الماء. يظهر ثعبانٌ على ملامحه أمارات الصلاح، أتراجع عدة خطوات خائفًا، فيقترب مني، ويربّت على رأسي بذيله مطمئنًا، أسمع نغمةً تُشبه المزمار؛ فيتمايل عليها، وأشاركه ما يقوم به، كأننا صديقان قديمان.

أغمض عينيَّ وأفتحهما، فلا أجد أحدًا. الأشجار صامتة، ولا أرى أي حيوانات، أبحث عن الزرافة بين الأغصان، أحاول أن أسمع صوت الحصان، أو أرى الألوان الزاهية للثعبان، لا شيء بالمرة.

يظهر فجأة سنجابٌ صغيرٌ بعد أن فقدت الأمل، يشير إلى ناحية الشمال؛ فأذهب خلف الأفق وأختفي أنا الآخر.

ميدان الرجل الحديدي

تمنّى لو أن قلبه حديديٌّ، فلا يضعف أمام المشاعر، ويستطيع أن ينفذ خططه دون ورعٍ. حينما أحب شعر أن حياته تُسرق منه، لم يكن ضعيفًا من قبلٍ هكذا، وبدلًا من الفرحِ من أجل وجودها كان يشعر أنها تخنق منافذه للحياة؛ فانتزع مشاعره وأبعدها. دهن غرفته بالسوادِ، وحذف كل الرسائل التي تأتيه منها، ظن لوهلةٍ أنه تحرر.

لا يقبل الخطأ في العمل، يوقع الجزاءات دائمًا، ولا يسمح بأيِّ مبررٍ. حتى عندما تأخر الموظف بسبب مرض زوجته، عاقبه بخصمٍ من راتبه. أراد قلبًا حديديًا؛ فانتقل إليه ملمس المعدن البارد، صار متبلدًا لا يشعرُ بشيءٍ.

فسدت أعضاؤه، وانهارت وظائفه الحيوية.. حينما اخترقت الغرغينة ذراعه، استبدلها على الفور بذراعٍ من حديدٍ. شعر بأنه أكثر قوةً، لكنَّ المرض الذي بدأ لا يتوقف، فتغلغل في ساقه، فاستبدلها أيضًا بساقٍ حديدية. هكذا تراه من بعيدٍ: ذراعٌ أيسر، وساقٌ يمنى، كأنه من المفسدين المقطوعين من خلافٍ. تغير قفصه الصدريّ وصار من فولاذٍ، قصبته الهوائية، كتفه، أحشاؤه من أنابيبٍ دقيقةٍ. تغيرت كل أعضائه، وبقى القلب كما هو، كأنَّه لعنته حتى يشعر بكل ألمٍ وحزنٍ. شيءٌ عجيب، الحديد يريد أن يلمسها، أن يعيدها لحياته من جديدٍ، والذراع المعدني يحاول أن

يحيطها في خياله، حتى شفتيه المُغيّرة تريد أن تلتصق بشفتيها. القلب لعنة والصدأ هو النتيجة. تحولت يداه لحديدٍ صدئ، صارت عيناه قطعتين مغلقتين من معدنٍ صلد، وتيبست ساقاه، وفي النهاية تصلدت مفاصله تمامًا، صار تمثالًا يشعر ولا يتحرك، يرى ولا يستطيع الركض. يمكنكِ أن تعبر الميدان، وتلقي عليه التحية. عندما تجلس أسفل منه لا تضع يدك على كتفِ حبيبتك، ولا تسل عن الدموع المنسابة، حتى أصبعه الذي يشير للطريق، في الحقيقة كان يشير إليها حينما جاءت لتراه في موضعه الأخير، تصلد الأصبع على هذه الحالة وهو يراها تبتعد وتبكي.

خمسون عامًا مرت وهو على هذه الحالة، ينظر إليه البائسون متمنين لو ماتوا بنفس سعادته، لو استطاعوا أن يصبحوا شاهدين على الزمن. تركض السيارات كما تركض الأيام، وهو على نفس الابتسامة المجمدة على وجهه. استطاع أخيرًا تحريك رمشيه، واكتسب بعد عناء السنوات وجهه الحزين، وهو يرى جنازتها تعبر أمامه. ولأول مرةٍ بعد التصلب يتحرك من مكانه، قاده قلبه فسار خلف مسيرة الرحيل، وحينما وصلوا إلى المقابر ودفنوها، ظلَّ ثابتًا عند رأس قبرها يخشى أن يلتفت فلا يجدها مرة أخرى، ظل على هذه الحالة حتى صار شاهدًا للقبر. يمكنكَ أن ترى التمثال المحاط بالنباتات بجوارها، لن تدرك حينما تتوقف لتقرأ لها الفاتحة هل كان هو من يقرأ أم أنت؟! لا عليكَ، يمكنكَ أن تدعو لها بالرحمة، أو تؤمّن على دعائه.

كانجرو

يطأ الأرض لأول مرة، يقفز ككانجرو يتعلم القفز، تناديه فراشة، فيركلها بقدمه، يقف على تلة مرتفعة ناظرًا للبساتين والصحراء، يرى الخط الفاصل بين اليابسة والماء. الأرض تشبه كوكبه الأزرق، الجو خانق قليلًا، لم يعتد عليه.

وصل لشجرة المعرفة، طاف حولها، وضع بجوارها حجرًا جاء به من كوكبه، نثر قليلًا من تربة كوكبية عجيبة، قفزت حول الشجرة مصدرة صوتًا كضحكات الأطفال. أثمرت الشجرة ثمرةً وحيدة، قطفها وقضم منها قضمة، ثم أغمض عينيه.. تتحرك حدقتاه حركات عشوائية، امتقع وجهه وهو يرى انفجارات كبيرة، يرى حوادث طُرقٍ، يشاهد الشعوب تزحف نحو زعمائها المستبدين، تحاصرهم وتغلق كل منافذ الهرب، يُبصر جثث القتلى الملقاة في كل مكانٍ؛ يصرخ، ويهتز جسمه بعنفٍ، وبعدها يسكن تمامًا وهو يرى طفلةً جميلة تحمل زهرة وطعام، تعطيهما لرجلٍ عجوزٍ ذو ملابس رثة يجلس على رصيف الشارع، فينظر لها مبتسمًا ويقول: شكرًا لكِ يا جميلتي.

يسير أخيرًا كالبشر لا يقفز. يزرع الأرض ببذورٍ جلبها من كوكبه، تنمو سريعًا، وصنع ماكينة للحصاد، تفصل الطعام في مكانٍ مخصص، وتصنع ملابسًا في مكانٍ آخر.

يندمج بين الناس، يصبح واحدًا منهم، فيشعر بالتعاسة لأحزانهم، فيربت على كتفه رجلٌ عجوز قائلًا: لا تحزن يا ولدي، الدنيا أسهل مما تتصور. يبتسم له، يخبره أنه يحب هذا العالم، وهذه الأرض. ينظر للسماء وتختلط دموعه مع قطرات المطر الخفيفة ويكمل: بل وأحب هذه السماء.

يتعجب الرجل العجوز من حديثه وطريقته، يتمتم بصوتٍ مسموع: المجانين في نعيم.

قُبلة حياة

تجمد فترة من الزمن، وحينما جاء الموعد شهق شهقة البعث. يتحرك كالوليد، يمرن جسمه على الحركة، يحاول اكتشاف العالم سريعًا، لكنه لا يشعر بأي عاطفة تجاه الأشياء، هذه الأرض لا تخصه، هذه السماء لا يعرفها. يذوب الجليد الذي في عينيه؛ فيتساقط كالدموع.

الصورة مشوشة.. يرى فتاة معلقة في الضباب، يهفو قلبه لها، يتقدم محاولًا لمسها، فتضيع يده في الفراغ. يتحرك قلبه، يضخ المشاعر بجسده، يُسرع الخُطى ويهرول، بعدها يركض، لكنه يسقط، فيقوم مسرعًا، يكمل ركضه خلف الصورة الضائعة، ينادي عليها: حبيبتي، انتظري. تتلاشى صورتها رويدًا رويدًا؛ فيتوقف تائهًا. يسمع فجأة موسيقى غريبة، وأغنية قادمة من داخله. يسير على الشاطئ، ينتظر حبيبته، لكنها لا تأتي، يشعر وقتها أنه ما زال ميتًا، وقبل أن يتمدد بجوار المياه تخرج له حورية، تأخذ بيده، وتقبله قبلة حياة؛ فلا يموت أبدًا.

يتجمد ويعود للحياة مراتٍ عديدة، يتغير العالم، ولا تتغير مشاعره نحو الفتاة التي رآها في أعالي الجبال، تجمع العنب البري، وتقفز طفلةً، تنثر الحب، والأحلام.

يصرخ فيسمع العالم أنينه وحزنه، يهرول بين السيارات والباصات. يشخبط اسمها على الإسفلت وعلى جذوع الأشجار، يقفز في الماء، ويصل للأعماق، ينحت صورتها على صخور البحر الغارقة، ويزورها كلما شعر بالافتقاد. بعدها يجلس كأي بشري على المقهى، يقلب في يومياته التي لا تنتهي.. كل الصفحات تتوقف عند لحظة الفراق.

جنون

أنهى درسه، خرج الطلاب، وتركوه بين المقاعد الفارغة، ينظر للسبورة وكلماته التي لطخ بها براءتها، يقف فجأة على أحد الكراسي، يلوح بيديه للفراغ صارخًا: أنتم تلوثون التاريخ.

تخترق أذنه همهمات الطلبة، وضحكاتهم المستترة، تبرق عيناه، فيقفز ممسكًا بالطبشورة، يرسم خطوطًا هلامية، وبعدها يلقيها بكل قوته خارج النافذة. عيناه تهيم متفحصة أجزاء الفصل، يعدّ بلاطات الأرضية، يتوقف عند بلاطة بيضاء مليئة ببقع خضراء، تسير فوقها نملةٌ، يسمع صوتًا خافتًا يصدر منها، يُنصت ويشحذ حواسه، ينبطح أرضًا ليسمع غناءها، يقهقه متعجبًا، ينزل عليها بكفه فيحطمها، ثم ينظر لجسدها الميت، ويبكي. يقوم فجأة يصرخ في الفراغ: أنتم تلوثون التاريخ. يخلع قميصه، وبنطاله، ويهرول في ساحة المدرسة.

الوليّ

وقف المريدون أسفل الجبل منتظرين قدوم الوليّ. فتاةٌ صغيرة تضع التراب على رأسها، تنظر نحو الجبل قائلة: يا سيدي.. أريد ولدًا لزوجي. ووقف شابٌ وسيم يحمل كتبًا، يرتل بعض آيات الكتاب المقدس وهو يهتز بعنف، تدمع عيناه ناظرًا للمكان المنشود ويقول بصوتٍ متقطع: لقد ضاقت الأرض بنا فقرًا يا مولانا، فلتوفقني هذا العام في الدراسة؛ حتى أعوض أبي وأمي عن شقاء الأيام. شيخٌ عجوز يسير مستندًا على عكازه، يسقط من التعب على الأرض، فيقبّل التراب قائلًا: هذا ترابٌ مباركٌ، سار عليه الوليّ، فلتمنحني الصحة يا سيدي.

يغمغم الناس بكلماتٍ غير مسموعة، يدورون حول أنفسهم في حركاتٍ خاشعة، يصيح رجلٌ وسط الجموع: انظروا إنها الهالة النورانية التي تسبق وصول مولانا. يرد عليه رجلٌ آخر معترضًا: بل هي صفوف الملائكة التي تحوم حوله. هبط الوليّ من الجبل، خرّ الناس له سجودًا، فأشار لهم أن يقفوا، وقال بصوتٍ رخيم: آن لنا أن نملك الأرض ومن عليها، لنُري العالم نور الرب، ونغمره بالخيرات والنعمات.

يد الحلم

يتململ على كرسيه المتحرك، ينظر إلى المدينة من فوق الجبل، يقول لنفسه: عندما أسير سأذهب للمدرسة، سأحب فتاةً تنمو الفراولة على شفتيها، سأجعل كاتبي المفضل يوقع لي على روايته التي أحبها، سأقرأ قصيدتي الحالمة في وسط الزحام، سأفعل وأفعل.

تناديه أخته: لقد حان موعد العلاج الطبيعي. تمسك بالكرسي لتدفعه للأمام، فينهرها قائلًا: أستطيع التحرك بمفردي. يتحرك بخفة بين أصدقائه الأشجار، يتوقف أمام شجرته الأثيرة، يُلقي لها قبلة في الهواء مبتسمًا، يدور بكرسيه دورانًا كاملًا، ويهتز كراقص محترف، ينظر لأخته قائلًا: هل ترقصين مثلي؟! تنظر له نظرات حانية: ستظل مجنونًا، لا أمل في شفائك.

ينظر إلى الشمس، ويحادثها: أنتِ قمرٌ متوهج، وأنا إنسانٌ ملتهب، لن تؤثري بي. ينادي على رفاقه النمل: لا تصعدوا الشجرة، فثمارها لم تنضج بعد. ينادي على أخته وهو يشير للسماء: انظري.. السحابة تُشكّل وجهي. فتقول له مبتسمة: إذا سأنتظركَ حتى تُمطر عليَّ. فيرد عليها بحماسٍ: أنا المطر والتربة، أنا الجبل والشجرة.

يصل إلى البيت، ينظر للدكتورة: صباح الخير يا صديقتي. فترد عليه: تقصد مساء الخير يا أستاذ، دائمًا تتأخر. ينظر إليها مبتسمًا قائلًا: على العكس عندما علمت بوجودك جئت جريًا.. لكنني تعثرت في الطريق. ابْتَسَمَتْ له، وأَمْسَكَتْ بيده، وقادته نحو الحلم.

حدود

تقف النملة وسط بلاطة السيراميك، تحاول أن تمر إلى سرب النمل، تصل عند فاصل البلاطة فلا تجتازه، تذهب للجانب الثاني، والثالث، والرابع، تشعر أنها محبوسة داخل الحدود الأربعة، تريد الوصول لأهلها وأصدقائها ولا تستطيع.

يتحرك صاحب البيت حركاتٍ عشوائية، تلمحه من بعيد وهو يتجه نحوها؛ تصاب بالرعب، وتضرب السيراميكة بأقدامها الضعيفة، تتحرك باضطرابٍ وتوتر يمينًا ويسارًا متفادية التحطم القادم، ينزل بقدمه الضخمة بجوارها مباشرة، تجري بسرعة هلعًا، تخترق الفاصل، تصل لسرب النمل، تصبح وسط أهلها وأصدقائها، تنظر للخلف غير مصدقة نفسها، لقد اجتازت الحدود.

تفكير

يسير مقيّدًا بالسلاسل، يتجمّع الناس حوله، يُلقون عليه الأوساخ والثّمار الفاسدة، ينظر إليهم مبتسمًا؛ فيثورون أكثر، يُلقون عليه الأحذية والأحجار، الدماء تغطي كل جسده، يصعد بهدوءٍ ليُشنق.

يقول له القاضي: أنت متهمٌ بالزّندقة. يرفع له كتاب علم التفكير ويكمل حديثه: ألست من قام بتأليف هذا الكتاب؟! يومِيء برأسه بالإيجاب؛ يصيح الناس: اقتلوه، اقتلوه. يرفض أن يُغَطَى وجهه، يُدخل الحارس الضخم رأسه داخل دائرة الحبل، يرى صبيًا يتسلّل أسفل منضدة القاضي، يسرق الكتاب، يبتسم وهو ينظر للناس، ثم ينظر للسماء، ويسقط الجسد هامدًا.

نول

ينثر حوله ماء الورد، يُعطّر المكان بالبخور، يرتفع صوت صغيره: "سأموت من الدخان." ينظر له مبتسمًا: "يا بني البخور بركة." حجرة صغيرة، يتوسّطها نول يدويّ لنسج الأقمشة، يُعدّل صورة أبيه، وينظّفها من الأتربة، يراه وهو يحاول تعليمه صناعة أجداده: "المستقبل في يديك، لابد أن تتعلّم صنعةً تأكل بها."

يُشاهد مكوك النّسج وهو يتنقّل في يد أبيه يمينًا ويسارًا، يرى الخيوط تُشكّل قماشة، يقول لأبيه بدهشة: "أنت ساحر يا أبي!" ينزل حفرة النول لأول مرة، يشبّ حتى يستطيع الإمساك بالمكوك، تلامس قدميه الدّوّاسة، يتعلّم العزف عليها، يتعلّم سحر أبيه.

تتدحرج دمعتان على خديه، وهو يحاول نقل صنعته لولده، يصرخ به صغيره: "لماذا تريد تعليمي العمل على النول يا أبي؛ هذه الصنعة بلا جدوى." يتذكر زوجته قبل وفاتها، مرضها، وشدّة ألمها، جلس بجوارها يتألّم لعجزه عن جلب الدّواء، لعجزه عن تخفيف معاناتها. ينظر لابنه كأنه يحلّ وثاقه أخيرًا ويقول: "المستقبل لم يعد بيدي يا بنيّ، تعلّم شيئًا يفيدك."

عالم رحب

عاش طيلة عمره في نفقٍ، كان كل عالمه. يصطاد الأرانب التي تمرّ، والطيور التي يُوقعها حظها العثر بذلك النفق. حواسه تضخّمت، أذنه أصبحت أكبر، صارت عيناه أوسع وأحدّ بصرًا، لا يعرف الكلام، لكن كانت تخرج من حنجرته صرخاتٌ يأنس بها. ظهر ثقبٌ صغيرٌ في الجدار، رأى من خلاله أوّل خيط ضوءٍ، رغم خفوته إلا أنه أصاب عينيه بالألم. نزلت قطرات الأمطار شحيحة من ذلك الثقب، نبتت نبتةٌ صغيرةٌ، كان يشاهدها متعجبًا، يراقب نموها، وانطلاقها نحو النور القادم، تعلّم منها، فلابد أن يخرج مثلها.

أخذ يحفر ويوسع الثقب، بعد شهور عديدة قضاها في العمل، تعودت عيناه على الضوء القادم رويدًا رويدًا. خرج أخيرًا للبراح، وجد نفسه وسط شارع سريع.. سيارات تطارد بعضها البعض، آذت الأبواق العالية أذنيه الحساستين، لكن شعور الحرية كان أكبر من أي شعورٍ سيئ، يقفز هنا وهناك، يأنس بصرخاته القادمة من عمق الخوف.

بعد مدة اشتاق لبيته الضيق، حاول العودة للنفق، لكن السيارات منعته، فاتجه ناحية العمران، يرى أشباحًا تسير على قدمين، عندما رأوه؛ خافوا من مظهره الغريب، وبعد كثرة الشكاوى، تم الإمساك به. ظل يتحرك بهياجٍ كالمجنون، تم تخديره وأخذه للمستشفى،

خلايا بشرية تقلب فيه، وهو لا يستطيع أن يدفع أيديهم الفضولية التي تنتهك حرمة جسده، دموعه تنسكب من عينيه، يحلم بظلام مأواه الذي أتى منه، عالمه الفسيح الحقيقي، كأن الصخور التي كانت تحيطه تخلق عالمًا ممتدًا. انتفض جسده بعنفٍ، وهدأ فجأة، مع هدوء واستقامة الخط الظاهر برسام القلب.

الدرج السحابيّ

وقف أمام الدرج السحابيّ ناظرًا إلى الأعلى، يحاول اكتشاف ما وراء النهاية. الشمس تضرب بعينيه، فلا يرى بوضوح. تأتي من خلفه مسرعة، تصرخ به: "أرجوك لا تذهب." لا يلتفت إليها، ويترك صورته بجوار بادئ الدرج، يذيلها بمقولته: "سأذهب لاكتشاف الحقيقة." يبدأ في الصعود، تتشبث بساقه، تبكي بشدة: "أرجوك يا حبيبي، لا تذهب، ابقَ معي." ينحني ويمسك بذراعيها، يوقفها، ويمسح دموعها بيديه: "لا تبكي يا حبيبتي، سأعود." يصعد إلى أعلى، يُميت صوتها بداخله، يغمض عينيه، فتومض حياته أمامه..

طفلٌ يلعب وسط المدينة، يجري في شوارعها، يبسط ذراعيه، يشعر بامتلاكه الشوارع والأرصفة، يُشخبط على جدران المنازل مبتهجًا، فيخرج له ساكنوها، يوبخونه، لكنه يبتسم لهم، فيبتسمون.

يهرولان نحو أعلى بناية في المدينة، تصيح به: "انتظر." يُبطئ من سرعته، ويمسك يدها، يغافلان الحارس، ويصعدان الدرج بسرعة كبيرة، يصلان للسطح، فيُشير للسماء: "يومًا ما سأذهب هناك."

يدوس على الدرج الهلامي، ينقبض قلبه، فيفتح عينيه، ينظر للوراء، فلا يراها، اختفت خلف الضباب. يُغمض عينيه من جديد، فيرى رجالًا كثيرين يهاجمون المدينة، يحاول مواجهتهم، فيتلقى

الضريات، يسقط أرضًا مخضبًا بدمائه، يزحف ببطءٍ، فيصل للشارع الذي تسكن به، يناديها، فلا يجيبه أحد، يخرج له رجل من شرفةٍ مجاورة قائلًا: "لقد رحلوا في الفجر."

وصل لنهاية الدرج، لا شيء سوى الفراغ، ووقف بالأعلى تضربه الرياح، يبسط ذراعيه، يرى وجهها أمامه، يبتسم قائلًا: "هذا الكون ملكي." وبعدها يقفز، يرى السماء، ويشاهد الأرض وبحارها، يشعر بأنه خفيف الوزن وهو يُحلّق في الفضاء، يقترب من اليابسة فيشعر بالتحرر أكثر، حينما وصل أخيرًا، كانت روحه تنطلق في عالمٍ بلا حدود.

قطار

دُفع إلى متاهةٍ مظلمة، يفرك عينيه محاولًا استكشاف المكان، يرى دوائر مظلمة متعاقبة، ويسمع أصواتًا صارخة، يتحسس تحت قدميه الحافيتين أحجارًا مسننة، يقف مكانه خائفًا أن يخطو خطوة واحدة للأمام. يسمع صوت قطارٍ قادم من الخلف، يحاول بنظرات مشتتة وروح معلقة في مشنقة الرعب أن يراه، لكنه لا يبصر سوى الدوائر الخانقة. يجري بأقصى طاقته فارًا من الموت، الأحجار المسننة تجرح روحه وتدمي قدميه الناعمتين، تصطدم بجسمه خفافيشٌ قاسية، يشعر أنه على حافة الانهيار. لن يتوقف الآن؛ فالموت يلاحقه، وطريقه يوشك على الانتهاء.

تصطدم به أجسام بشرية، ذاهبة باتجاه القطار. يصرخ بهم، يخبرهم أنهم يسيرون في طريق الموت، فلا يجيبه سوى نظراتهم المشتتة المرعوبة.

توقفت أمامه فتاة أنارت المتاهة لحظة، قالت له: تعالَ معنا.

تتحرك الأشياء فجأة ببطءٍ شديد، فيهدأ قليلًا. يلتقط أنفاسه، ويناشدها بالقدوم معه، لكن نظراتها ترجوه ألا يتركها ويسير معها. بعد أن فقدت الأمل أكملت هربها في الجهة المعاكسة له. يقف دقيقةً شاردًا، يمسح دمعةً تبكيها، يأتيه الصوت المفزع مجددًا، فيترك ذاكرته القليلة، ويجري مبتعدًا، تدوس قدماه على كائنات

صغيرة، تئن من تحته، وعندما اخترق الأوحال توقف ليمسح الطين العالق به، معتذرًا لكائنٍ صغير كَسَرَ ساقه.

توشك المتاهة على الانتهاء، دقائق ويكون بالخارج، صوت القطار يزداد، يأتيه من كل مكان.. على بُعْد خطوات أمامه كان يتجه بسرعة خيالية نحوه.

الله ليس في مساجدكم

يجوب البلدان، ويصعد الجبال، يأكل من البرية، ويستحم في البحر. يجري خلفه البسطاء، فينظر لهم مبتسمًا، يدعو لهم بالخير الوفير. نظراته تحمل لهم هدوءًا عجيبًا وسكينة.

يصل لقريةٍ، فيجلس تحت شجرة خضراء يستظل بها من الحر الشديد، يحاول أن يرقّع ثوبه الممزق، وينفض التراب الملتصق به كطفلة في حضن أبيها. يحيطه المشايخ، يناشدونه أن يبقى معهم؛ حتى يجدد التعاليم، انتظروه بعد أن وصلت إليهم أخبار كراماته وبركاته.

يقول لهم: "ما أنا إلا عابر سبيل."

يطلبون منه المرور على مساجدهم، يعظ أهل القرية، فيقول لهم: "الله ليس في مساجدكم." فاقترب منه شيخٌ ذو لحية شديدة السواد، ويرتدي جلبابًا ناصع البياض، يدفعه بكل قوته صارخًا: "لا تنصتوا لهذا المبتدع." يسقط على الأرض، فيقوم بهدوءٍ، ويبتسم في وجهه قائلًا: "الله ليس في مساجدكم." فيتجمع عليه المشايخ صارخين: "هذا الرجل مبتدع؛ لا تنصتوا إليه، واقتلوه." فيطارده الناس، يضربونه بالأحجار؛ فتسيل الدماء من كل أجزاء جسمه، ولكن الابتسامة لا تفارقه، كأنه لا يشعر بالألم، ومع استمرار النزيف يسقط متأثرًا بجراحه. يشق الطريق نحوه شابٌ

صغيرٌ، يصرخ بالناس: "دعوه وشأنه." ويريح رأسه على فخذه قائلًا: "فلتسامحهم يا سيدي." يشير إلى قلب الشاب: "الله يوجد هنا." ويلفظ أنفاسه الأخيرة.

الفتاة والظل

(1)

يجري بأقصى طاقته، يطارده جنودٌ يرتدون الأسود، وينتظره جنود يرتدون الأبيض، يبتسمون ويصوبون بنادقهم نحو صدره، يدور ويلتف، لكنه محاصر. تُطلق الرصاصات نحوه، فينبطح أرضًا ويتفاداها، يقوم ممسكًا بيده حفنة من التراب، ينثرها في وجوههم، ويجتاز أجسامهم الضخمة. تصبغ الشمس الخضراء جسمه بلونها. تتبعه رصاصةٌ تستهدفه، يحاول أن يتجنبها، لكنها تبحث عنه بجنونٍ، فتصيبه في كتفه، ويسقط. يناديه القمر الوردي: "لا وقت للجراح."

يقف ممسكًا بفرعِ شجرةٍ، يضرب به المهاجمين، فيتكاثرون عليه. يشعر بخوفٍ شديدٍ واضطراب، يحاول تهدئة نفسه، لكن ظله ينفصل، يصبح كيانًا منفردًا. بعدها لم تؤثر به الضربات، ولا حتى تخدش جلده الرصاصات. يهرب الظل من بين الأقدام، فينظر إليه متعجبًا، يحاول أن ينادي عليه لكن صوته لا يخرج، وتيبس ذراعاه، وتحول شعره لوريقات، صار شجرة تقف فوق التل.

(2)

يزور الشجرة المقدسة كل عامٍ، يطوف حولها، ويقدم لها القرابين. يلمح ظلًا يخرج من باطن الأرض يحوم حول الجذع العملاق، ويعود لباطن الأرض مجددًا.

تأتي كل حَوْلٍ، تضع أكاليل الزهور بجوار الشجرة، تسعى بالوادي الأخضر، وتنثر ملحًا لوليدها الذي لم يأتِ والده حتى الآن.

يجيء الجنود كل سنةٍ، يحطمون الأشجار، وينزعون الخضرة عن الوادي.. لكنهم يقفون عاجزين عن تحطيم الأفرع المباركة.

يطوف الظل البلاد، يشرب من النهر الأبيض، ويرسم ملامح سعيدةٍ على وجوه الأطفال، يخترق ساحة الحكم، يقف شاخصًا إلى الصورة المجسمة للزعيم المعلقة في السماء، يكتب على الجدران: "سيولد ابن الظل، ويخترق الساحة المظلمة."

(3)

ولدت تلك الفتاة ذات الشعر الذهبي والعيون الخضراء، تحمل على كتفها وشمًا مظلمًا، لا تتكلم، لكن عيونها تحادث القلوب فتخترقها. ذهبت للوادي، نادت على الظل: "أنا ابنتك يا أبي. صعدت الشجرة المقدسة، ورأيت العالم من فوقها، بمباركتكَ سأنهي الظلمة.. باركني يا أبي"

تنادي على البشر: "فلتخرجوا؛ لتحرقوا الظلام. الشوارع والميادين ملكٌ لكم." نظر إليها الناس من النوافذ قائلين: "أنتِ فتاةٌ، لا تتوافقين مع النبوءة، نحن ننتظر ابن الظل لا ابنته المزيفة."

صرخت بهم: "أنا بنت الظل، فتاة النور، أحمل معي الطريق الأخضر." فيخرج شعاعٌ أخضر من عينيها، يرصف الطريق بلونه، ويتجه نحو الساحة المظلمة. تسير وحدها، فيتشجع شابٌ ويسير خلفها، ويناديها رجلٌ عجوزٌ: "تمهلي يا بنيتي؛ فلم نأكل طعام العشاء." تصرخ امرأة بوجهها: "زوجي في السجن.. سيقتلونه."

تسير على الدرب، ويسير الناس وراءها، يسبقها البعض مرتلين ترنيمة العودة. يتجسد بجوارها الظل، فيمسك بيديها، ويهمس لها: "لن أقسو ولن أتطرف، سأكون الظل المحب الرحيم." منحها قلبًا جديدًا، وحلق في السماء متواريًا خلف السحاب.

امرأة

يقف على حافة البئر، ويرفع المياه بالشادوف. يرتدي ملابسًا فضفاضة، ذراعاه يظهران من الأكمام الواسعة، الشمس صبغت لونه بالسمرة. ينادي على زوجته الممسكة بالفأس، وتروي الأرض. تتحرك بنشاطٍ كبير، ترفع ملابسها قليلًا؛ حتى لا تبتل، وتُسرع الخطى كلما وجدت قَطعًا في القناية؛ فتسده. تحاول إبعاد طائر أبو قردان، لكن زوجها يصيح بها مداعبًا: "هو صديقنا، لقد سمعت في الراديو أنه صديق الفلاح." يجلسان تحت شجرة التوت عندما يأتي موعد الغداء، يتناولان طعامهما الوحيد: الجبنة القديمة، وبعض ثمار الطماطم التي يأخذونها من الحقل.

في موسم البلح، يصعد الزوج أشجار النخيل بواسطة حبلٍ يلفه حول وسطه، يأخذ معه طبقًا كبيرًا مصنوعًا من السعف، يجني به البلح الرطب، وحينما يُنزله، تكون هي في انتظاره، فتمسك به وهو في الهواء، تضعه على فرشةٍ مصنوعةٍ من البلاستيك، وتجلس تنتقي الثمار. أمامها عدد من الأواني المصنوعة من الألومنيوم، فتضع البلح الأصفر في آنية، والبلح الرطب في آنيةٍ أخرى، أما في الثالثة فتضع الحشف؛ لتستخدمه في إطعام الحيوانات.. الحمار الذي يضعان عليه الأحمال، واثنان من الماعز يقومان بحلبهما لإعداد طعام الإفطار.

في الليل يقوم بإشعال النيران، لتمنحهما الدفء، ثُمَّ يقوم ليعمل على النول، ينسج فوطًا قطنية، يبيعها للمساعدة على المعيشة. وتقوم هي بضبط الخيوط ولفها على مخروطٍ صغير مصنوعٍ من البلاستيك، بعد فرز ألوانها. تصنع له الشاي، فيحمد الله على نعمه الكثيرة، وعلى وجودها.

يشيخان سويًا، يكسو البياض شعرهما معًا، ويصافحهما الوهن. تقول له: "لا تذهب وتُشغّل ماكينة الري وحدك؛ صحتك لن تساعدك." يضحك معاندًا، ويرد: "أنا صحتي حديد؛ فما زلت شبابًا." ينجح في تشغيل الماكينة، ويبدأ في ريّ الأرض، بينما هي تُعد طعام الغداء. يسقط وسط المياه، فتسمع صوت ارتطامه بالأرض، تجري إليه صارخة: "ماذا حدث؟" ترتعش يداه، ويثقل لسانه. تبكي بجواره بعد أن طلبت الطبيب وتجلس على نارٍ في انتظاره. جاء لكنه لم يطمئنها، قال لها: "لقد أُصيب بجلطة في المخ." لا تعرف معنى الجلطة، لكنها بعد مدة فهمت، لقد أُصيب بشللٍ في نصفه الأيسر، فلا يستطيع تحريك يده ولا ساقه في هذا الجزء، ويتكلم بصعوبةٍ. بعد مدةٍ صار يُفضّل عدم الكلام، فيجلس ناظرًا للسقف بدموعٍ حبيسة.

يواظب على جلسات العلاج الطبيعي والكهرباء، وبعد مدةٍ أصبح قادرًا على الحركة قليلًا، فيستند على كتفها وهو يقوم بتمرين المشي. يشعر بالإرهاق والتعب، فتجلس بجواره تُلقي النكات

لإضحاكه، وتقول له: "لا تمت، فعندما تموت سأتزوج شابًا في العشرين." فيرد عليها باسمًا: "بل يجب عليكِ أنتِ أن تخافي؛ فلو شُفيت سأتزوج شابتين، وقد أتزوج الثالثة." تضحك وهي تقول: "وهل تقدر على واحدةٍ حتى تتزوج الثانية؟!"

يريد دخول الحمام بالليل، فيشفق عليها ولا يوقظها، يحاول جاهدًا أن يستند على الجدران حتى يصل. لكنه يسقط، فتقوم فزعة على صوت ارتطامه، وتمسكه لكي يقف. تعاتبه قائلة: "لماذا لم تنادِ عليَّ؟" فيقول لها: "أنتِ متعبةٌ طوال اليوم."

تمرض، وتغيب عن الوعي. يجلس بجوارها حزينًا، يشعر بفراغٍ في حياته، ولن يملأه أحدٌ سواها. تستيقظ فتتهلل أساريره، تبادره بالسؤال: "كيف حالك الآن؟" فيقول لها: "خليكِ في نفسك أنتِ. الحمد لله الآن؟" فترد عليه: "الحمد لله." وتغيب مرة أخرى عن الوعي، لكن هذه المرة تطول. تفيق بعدها وتشعر بوهنٍ شديد، تقول بصوتٍ خافت: "لا إله إلا الله، محمد رسول الله." وتفقد الوعي من جديد. يتوقف نَفَسُها، فيحاول مذهولًا معرفة هل ما زالت تتنفس؟ هل قلبها ينبض؟ لكنها ماتت. ينظر إليها دامعًا ويقول: "هل حان الوداع؟! الله يسامحك، ويغفر لكِ. لم تُسيئي لي مطلقًا، لم تغضبيني أبدًا. تحملتيني في صحتي، وحملتيني في مرضي، ولم تشتكِ. إنّا لله وإنّا إليه راجعون."

السيد

ينزل على درجات السُلم ببطءٍ، تُحلق حوله فراشة بيضاء، تقطر دقيقًا؛ تُلون الدرج. يراه الناس فيهللون، يندفعون نحو آثار قدميه، يلعقونها ويتبركون بها. يشير لهم بالتوقف؛ فيتجمدون مكانهم. يصعد فوق أكتافهم وظهورهم، يسير بوجلٍ محوقلًا، ويتمتم بكلماتٍ غير مفهومة، يرفع يديه لأعلى ويُسمع صوته الخافت: "نحن عبيدك يا الله، نسير على دربك، فسدد خطانا."

تنثر السيدات فوق رأسه زهورًا وورودًا، يناشدنه أن تُلبى مقاصدهن، تجتاز الزحام امرأة ذات عيونٍ زرقاء، تطلب منه بصوتٍ متهدج: "حل عقدتي يا سيدي." ينظر إليها باسمًا، يضع يده على رأسها، ويتفل. يخترق الصفوف صبيٌ صغير، يتخطى الأرجل والسيقان، يقفز ليراه، وبكل قوته يُلقي عليه طماطم فاسدة، فتأتي بوجهه ورأسه، يسود الهرج والمرج بين الناس، ويحاولون الإمساك به، لكنه يختفي، ويظهر من الجهة المقابلة، ويرميه مرة أخرى.

يتمتم السيد بكلماتٍ محاولًا كتم غضبه. لكن الفتى يستمر في فعلته، يظهر ويختفي، بعد قليلٍ صار الصبية والفتيات يقلدونه، يُلقون على صاحب الدقيق كل شيءٍ في متناولهم.. أحجارًا، بقايا أطعمة، ومخلفات المنازل؛ فيسقط من فوق الأكتاف والظهور.

حاول الناس الإمساك به قبل السقوط، لكن أيديهم الواهنة لم تحميه. لامس التراب، وانتفض جسده.

يشهق الناس صارخين: "لم يمت، فلم تزلزل الأرض، ولم تغرقنا البحار، أو تنزل علينا الصواعق." يتركونه على الأرض، ويَنفضّون عنه، يذهبون لحقولهم ومصانعهم، ويذهب الأولاد لمدارسهم. يبتسم الصبي حاملًا ثمرة طماطم غير فاسدة، يقضمها ويقفز في الهواء.

الطريق

يقف على الطريق، النهاية سرابٌ. يتقدم خطوةً فيستقبله رجلٌ لا يرى وجهه من كثافة شعره الأسود، صوته ناعمٌ كفراشة تحتضر، يشير له أن يكمل الطريق، يحمل معه زاده: راديو صغير، حافظة نقود، قلادة للحظ، تفاحة خضراء، وزجاجة ماء.

تنبعث من الراديو موسيقى صباحية، نسائم الصباح تتطاير حوله، فتعطيه قوةً ووسامة، يقفز حوله أرنبٌ أبيض، ويختفي على جانب الطريق، يقلد الأرنب، فيجتاز الطريق قفزًا، يدندن بأغنيته الصباحية المفضلة "يا حلو صبح يا حلو طل"، يرى أطيافًا باهتة تمر بجواره، فتاة مراهقة، تلوح له، ترتدي زيها المدرسي، بلوزةً بيضاء وجيب كحلي، تربط شعرها ذيل حصان، تهمس له: "أحبك." وتضيع همساتها في الفراغ.

قرص الشمس يرتفع إلى كبد السماء، يرى أمامه نفس الرجل، لكن شعره الكثيف صار رماديًا، يتحرك نحوه، مادًا يده قائلًا بصوتٍ خشنٍ كقرقعات الأحجار وهي تُكسّر: "حاجة لله." يفتح حافظة نقوده، يُخرج ورقتين، ويهمّ بإعطائه إياهما، يتردد قليلًا، فيدس ورقةً بحافظته، ويعطيه ورقةً واحدة، استطاع أن يرى عينيه، وجزءًا من وجهه وهو يبتسم، ويقول له: "خلي بالك من نفسك يا بني."

يسير ببطءٍ شديد، أشعة الشمس تهدم جسده، يشعر بالجوع والعطش، فيُخرج التفاحة، ويقضم منها قضمة، ويُخرج زجاجة الماء ويرتوي منها، يستعيد طاقته، يبني قواه من جديد، فيسير بسرعة مرة أخرى، يتعثر في حجرٍ في وسط الطريق، فيبحث عن قلادة الحظ، ويجدها قد سقطت وهو لا يدري. تقطع الطريق فجأة سلحفاة، فينتظر أن تمرّ، يصيبه الملل من بطئها، يحاول دفعها بقدمه، فتتحول صدفتها أشواكًا، فتنغرس في لحمه، يصرخ متألمًا، فيتركها تعبر على مهلها، وحينما توشك على المرور، يرى سلحفاةً تشبهها، فلا يقربها، ويدعها تسير كما يحلو لها. ويرسل الراديو موسيقى ظهيرة واهنة.

يراها أمامه، امرأة ذات بشرة برونزية، ترتدي فستانًا بلا أكمام، قصيرًا حتى الركبة، شعرها تركته يتطاير على كتفيها، ساحرةٌ هي، يتوقف كل شيء حوله، فلا يرى سواها. تبسط له ذراعيها، فيرتمي بينهما، يرتشف عسل الشفاه، ويعتصر رحيق النهدين، تضمه لجسدها أكثر، فيطبع على كتفها قبلةً محبة، ويدور كل شيء حوله فجأة. يبتعد عنها قليلًا، الأتربة في كل مكان، العواصف تدور كمروحة بلا مركز، تصطدم به كتبٌ مفتوحة، يحاول الالتفات إليها، فلا يجدها، اختفت تمامًا، يحاول أن يناديها، فلا يتذكر اسمها. يجاهد الرياح العشوائية، ويرى قناة مائية تقطع الطريق،

يحاول القفز من فوقها، لكنه يفشل، فيجمع بعض الأخشاب المتناثرة حوله، يربطها بقوة صانعًا جسرًا، ويعبر عليه.

يتحول لون الشمس إلى الأحمر القرمزي، ينبعث من الراديو موسيقى مسائية هادئة، يتحرك ببطءٍ شديد، فليس له رغبة في الإسراع، يُخرج تفاحتة، يقضم منها قضمة أخرى، ويروى جسده الضعيف بشربة ماءٍ. يرى هدهدًا أبيض، يحوم حوله ويرافقه، يُغمض عينيه قليلًا، ويفتحهما، تحوم حوله أطيافٌ كثيرة، تهرول وتجري، تصطدم به، فيقع على الأرض، لكنه يقوم سريعًا. يشعر بهدوءٍ غريب، وبسكينةٍ لا حدود لها، يبحث عن الرجل الذي قابله مرتين، يتخيل شكله.. ظهره انحنى، وشعره ابيضّ، صار صوته مبحوحًا، يشبه في خياله الكون لحظة النهاية. لكنه لم يظهر في الحقيقة، فيكمل طريقه وحيدًا. ما تزال موسيقى المساء تنساب من الراديو كنهرٍ حانٍ.

يتحرك ببطءٍ إلى نهاية الطريق، الظهر منحني، والشعر أبيض، يُغني أغنيته المفضلة "يا حلو صبح يا حلو طل" بصوتٍ مبحوحٍ كأنه الكون لحظة النهاية.

الروح الهائمة

تشعر روحه بسجنٍ جسديّ تود أن تهرب منه، رجلٌ مسن يستند على عكازه، يتذكر لمسة حبيبته التي رحلت منذ خمسين خريفًا، يجتاز الشارع بصعوبةٍ، يتفادى السيارات الهوجاء، فيراه شابٌ فيسرع ويأخذ بيده، يعبر به للناصية الأخرى، ويشهق شهقة البعث.

شابٌ صغيرٌ في منتصف الزحام، أمامه مباشرة عجوزٌ، يحاول تلمس طريقه على الرصيف، طيف الحبيبة يطوف حوله، فيبكي متذكرًا لمسة يدها وهي راحلة، بكاءها المستمر، وتنهداتها المتقطعة: "سأفتقدك يا حبيبي."

كرةٌ طائرة من صبي تصطدم برأسه، يترنح أرضًا وهو يحاول الاستناد على شابةٍ صغيرة، ويشهق شهقة البعث.

فتاةٌ تتلمس طريقها بين أرجل المارة، تنظر لشابٍ مترنحًا بجوارها بعد أن اصطدم بها: "هل حدث لك مكروه؟!" تجتاز الشارع بين السيارات المجنونة وهي تقول: "يارب أموت؛ حتى أرتاح." تضع يدها بجيبها، فتجد وردةً ذابلة، وترى طيف حبيبها أمامها: "كم أفتقدك يا حبيبي." تسمع صراخ أبيها: "لن تتزوجيه، أنتِ لا تعرفين مصلحتك." تدور الأرض بها، تصرخ وتصرخ. تطيح بها سيارةٌ

غشيمة، ترى الأشياء من حولها باهتة، وتسمع أصواتًا وهمهماتٍ لا تعي معناها، وتشهق شهقة البعث.

شابٌ متوترٌ يقود سيارته، يتوقف مرعوبًا، ويجري على الفتاة التي صدمها، يقول لها بصوت خائف: "أنتِ بخير؟!" تفتح عينيها وتغمضهما: "أنا بخير، لم يحدث شيءٌ." فيقول لها بعد أن اطمأن قليلًا: "الحمد لله على سلامتك." يعود لسيارته، يقتله الحنين، نفس العيون والنظرات، يتذكر لحظاتها الأخيرة، تقول له بصوتٍ متقطع: "وصيتك طفلنا." يجتاز الطريق نحو المقابر، يمسك بيد الطفل الذي يقول له بفرحٍ: "سنذهب لماما أخيرًا يا بابا؟! أنا فرحان جدًا." لا تنقطع الدموع من عينيه، يهمس لها كأنها تسمعه: "أفتقدك جدًا يا حبيبتي." يناديه عجوزٌ، يستند على عكازه: "خُذ بيدي يا بُني." يقوده لقبر زوجته، يقول له: "لابد أن أراها كل أسبوع." تدمع عيناه وهو يعاود إمساك يد ابنه، ويشهق شهقة البعث.

عجوزٌ يقف بجوار قبر زوجته، يقول لها كأنها تسمعه: "لقد أتيت يا حبيبتي." يُطيل النظر لموضع رأسها المتوج بصبارات حزينة، تدور الأرض من حوله، وتختنق أنفاسه، يضع يديه برفقٍ على القبر، ويقول بصوتٍ واهنٍ: "لقد حان موعد اللقاء أخيرًا يا حبيبتي."

مهد السحاب

وُلِدَ فوق سحابةٍ.. سافرت أمه وهي تحمله في أحشائها، توقف محرك الطائرة فجأة وهي تحلق، اشتعل ذيلها، وتحطمت الأبواب، سقطت الأم من الطائرة، لتستقبلها سحابة وتحملها. انخلع قلبها وهي تشاهد تحطم الطائرة عندما ارتطمت بالأرض.

تبكي، وتأن، تختلط بداخلها مشاعر الخوف والإيمان، الشمس تحرقها، وألم الوضع يستنزفها، جاءت سحابة أخرى فظللتها، وضعته طفلًا غير عاديٍ، ولفظت أنفاسها الأخيرة.

مشى بعد ساعة من ولادته، أخذ يحوم حول أمه الميتة، ولا يدري ما يصنع. جاء غرابٌ، يجر جسد أمه المفارق للحياة، فحفر لها حفرةً بمنقاره وسط السحاب، ودفنها بها. فعل مثل ما فعل الغراب، وارى جسد أمه في حفرةٍ، ومكث بجوارها يبكي. لم يتخيل انفصاله عنها، كأنه مقيدٌ لموضع دفنها، ومع مرور الوقت بدأ يتحرك مبتعدًا، ظل يدور ويدور، وكل مرة يعود من جديدٍ إليها.. فهي المركز الذي لا يمكن محوه.

السحابة التي ظللت أمه وهو في بطنها، ظللته هو الآخر، ترافقه كلما قفز من سحابةٍ لأخرى، يفرح حينما تمطر عليه، وتزداد قوته مع كل قطرة تسقط فوقه، شبّ بسرعةٍ، وصار رجلًا يافعًا.

كلما رأى طائرة، يخاف بشدة؛ فيبكي بلا سببٍ، وهو يهرول مبتعدًا عنها.

هو دائم التأمل في الأرض، يحب اللون الأخضر الذي يكسو بعض المناطق، وتشده المرايا الرقراقة، التي تتحرك بها أشياء ضخمة ذات أشرعة.

تشكل له وجهٌ من السحاب، وصّاه بضرورة الهبوط إلى الأرض، لكنه رفض بشدة، فأخذ يقص عليه الحكايات عن البشر، وعن المدينة التي جاءت منها أمه، حدثه عن البنايات الضخمة والأشجار الخضراء، وضّح له أن المرايا التي يراها ما هي إلا بحارٌ تمتلئ بالماء، أخبره وأخبره؛ فقرر أخيرًا الهبوط. قفز من سحابةٍ عالية لأخرى منخفضة، ثم هبط لقمة جبلٍ، أصابته رجفة عند ملامسة الرمال، لكنه لم يلتفت لقلبه الخائف، وجرى وسط الصحراء، عبرها، ووصل للمروج الخضراء. وجد نفسه فجأة في زحامٍ شديد، عاريًا لا يعرف أي الطرق يسلك، تتبعته النظرات بدهشةٍ، وأشار طفلٌ إليه: "انظري يا أمي هذا المجنون!" لا يلتفت لنظرات الاستهجان، أَلِفَ اسمه.. "المجنون." لم تنتهِ الرحلة، يستمر في الجري بين المروج والزحام عاريًا، وصل أخيرًا للمرايا، وقفز المياه. يتحرك حركات عشوائية تُغرقه، فيتشنج ويكمل فوضاه. جاءته حورية المرايا المبللة، وهمست في أذنه: "اهدأ." فهدأ، وعلمته الغوص؛ فأحبها.

الساعات الأبدية: حكاية حب لا يفنى

قبل الساعة الأولى

يسير في الطرقات، يتوارى خلف الأشجار، يبكي، ويصرخ صرخات داخلية، يسير على درب الذكريات، فيرى العالم بعينٍ سقيمة لا ترى بوضوحٍ، يقرأ في كتاب الماضي، يسير بجوار طيفها؛ فيبستم، ويبكي من جديد.

الساعة الأولى

ظهرت الشمس خجلة، رآها تبكي، شعرت بالارتياح له. ظن أن الأرض الخضراء التي يسير عليها قد احترقت، فيسير على الإسفلت الملتهب بحذاءٍ مزقته الحكاية الأولى. يحمل حقيبة من الرسائل التي لم تصل إلى الحبيبة الراحلة، ويحمل صورتها بقلادة، يُخفيها تحت ياقة قميصه.

الساعة الثانية

شعر بالارتياح لتلك الوافدة الجديدة، تصادقا، أو تحابا، لم يعلما سرّ ما بينهما، كيف يشعران بالاشتياق وهما يتحدثان بالساعات؟ تحكي له كأنها تحادث نفسها، يحكي لها كأنها مرآة لروحه. بقلبين هدتهما الحكايات الأولى يتحسسان حلاوة الحب، رسما لوحة عشقٍ وسلام للعالم، علّقاها على أستار روحيهما.

الساعة الثالثة

تدق الساعة دقاتٍ مخيفة، تتحرك العقارب بخوفٍ وترقب، يسير الحب في طريق نهايته، حاولا أن يبتعدا، أن يُطفئا تلك الشمس التي غمرتهما حبًا ودفئًا.

قالت الحبيبة: لقد جف النبع.

قال الحبيب: لم يجف، بل صارت مياهه تسير في كل مكانٍ أسفل الأرض.

الساعة الرابعة

سارا في طريقٍ غير ممهدٍ، لكن عين الحكاية لا ترى سوى صورة الحبيبين القادمة من جوف المستحيل والخيانة. جاءت لتقهر كل أساطير الإنسان، جاءت لتقول: الحب يطير ويحلق، لكنه لا يموت.

هاتفها قائلًا: "لن نتحدث سوى خمس دقائق." فتحادثا خمس ساعاتٍ.

قال لنفسه: "لن أحبها." وأحبها، وهام بها عشقًا. قالت: "هو أغلى صديقٍ." فكان الحبيب الذي لا يفارق مخيلتها.

الساعة الخامسة

تتعامد الشمس على الرُّؤُوس، يصمد الحب محاولًا تجفيف عرقه، ويغزل بكل جهده قصتهما.

ابتعد هو عن كل الأشخاص سواها، وابتعدتْ هي عن بطل حكايتها الماضية. هي تفاحة نيوتن التي سقطت في حضنه؛ فحاول أن يُصيغ قانونًا للجاذبية، فصاغ سر الحياة.

الشمس لا تشرق إلا من أجلهما، والقمر لا يزور الأرض إلا ليراهما متعانقين.

الساعة السادسة

كوني بجواري.

أنا بجوارِكَ دائمًا.

أحتاجكِ.

أحتاجكَ أكثر يا حبيبي.

دقت الساعة فَرِحَة على دقات قلبيهما، النور يخطو بجوارهما، يحيطهما، ويوقف الساعة على تلك اللحظة، فلا تنتهي سعادتهما.

الساعة الأخيرة الأبدية

يطيران كالفراشات، يمتصان رحيق الحياة، يُغردان على أغصان الحب، يملآن الأرض ببذور الأمل، تتفجر ينابيع الرحمة الصافية، تسقي العابرين، تروي الحيارى، تغزل للنساء الحزينات ثوبًا للفرح، وتُعطي الرجال البائسين مطرقة تقهر المستحيل.

عينكِ وطني.

عينكَ وطني.

السم الهاري

في نوبةِ جنوني الأخيرة، لم أفرق هل أنا في بداية الطريقِ، أم في آخره. درتُ بلا هدًى، كلما حاولت الخروج من عنقِ الزجاجة، أجدني في واحدةٍ أكبر.

يُحَدَّث قلبي ذاتيًا، فكلما ظهرت ملامح فتاة تتغير، وأظل أبحث عن محطةِ وقوفٍ في الطريق.

الطبيبة المعالجة تخبرني أن حالتي مستعصية، ويجب عليّ المكوث بعض الوقتِ في مصحةٍ نفسية، فأكسر دماغها قبل أن تحرر الأمرِ، وأكتب لها رسالةَ اعتذارٍ، وأتركها لأحصي حبات الرمال في الشارع.

نوبةُ صرعٍ سبقت نوبة الجنون، اهتز جسدي وانهار في البداية، ثم تحولت كل الألوان إلى الرماديّ، أتذكر كلام صديقي الذي لا أذكر ملامحه: "القطط ترى كل الألوان لونًا رماديًّا." حاولت بعدها تعلّم المواء، لكنني فشلت، حاولت تعلّم النباح، فكشفني كلب الجيران وطاردني، وعندما يئست، تعلمت صمت الزرافة.

حاولت زوجتي إيقاظي في هذا اليوم، كانت ترتدي قميص نومٍ ورديّ، قبلتني كثيرًا على أمل أن أستعيد عقلي، لكنني دفعتها نحو

الشرفة، فسقطت ميتة. حاولتُ البكاء، لكنني عجزت عن سكب دموع الوجع عليها.

الجدران هنا باردة، وخوفي من جلسات الكهرباء جعلني أبتعد عن الطعام والشراب، يقول لي الممرض الضخم: "كُلْ، أكلت السمّ الهاريّ." هربت في هذه الليلة بعد أن ضربته على رأسه، سمعتهم وهم يركضون خلفي يقولون: "لقد قتله."

كنت زاهدًا في كل الطعامِ بعد الهروب، حاولت بشتى الطرق البحث عن السمّ الهاريّ طعامي في المصحة، رأيت في عيون البعض سخرية، وكنت أمقت السخرية جدًا؛ فأمسكت الأحجار بيدي، وانهلت عليهم. دلني عجوزٌ على مكان بيع السمّ، أعطاني البائع سمّ فئران، وأخبرني أنه السمّ الهاريّ الذي طلبته. أُحدّثكمْ الآن، وأنا أتناولُ طعامي اللذيذ.

قصتي المنسية

في كثيرٍ من الأحيان، أُعيد تشكيل صورة الشخص الذي أمامي؛ حتى أتذكر متى رأيته. بالأمس ظلّ رجلٌ يتحدث إليّ، ويقسم بأنه صديقي الأثير، وعندما أعدت تكوين صورته مئات المرات، لم أتذكره بالمرة.

منذ عدة أيامٍ استيقظت ليلًا، فوجدت امرأةً جميلة بجواري، أخبرتني بأنها زوجتي، بالطبع لم أكن أتذكرها، لكنني انتهزتُ الفرصة، وقبّلتها عدة مرات.

واليوم يجلس قبالتي رجلٌ بزيٍّ عسكريٍّ، يخبرني مرارًا وتكرارًا بأنه الزعيم، وكلما حاولت تجميع صورته داخلي، لا أصل إلى نتيجة.

منذ قليلٍ التفَّتْ حولي قطةٌ بيضاء، لم تضِعْ صورتها من داخلي، إنها قطتي مشمشة، رَبَّتُ على رأسها، بعد أن أطعمتها، ووضعتها في بيتها الصغير، غطيتها حتى لا تشعر بالبرد، وأنا أحكي لها قصتي المنسية.

دفء

ينساب البرد من النوافذ، ومن أسفل الأبواب، لا أغطيةً تنفع. في البداية أحرقت المفارش، وبعدها أضرمت النيران في بعض ملابسي حتى أشعر بالدفء. لكن الصقيع مستمرٌ، يكسو الجدران ويتسلق روحي. ألتفتُ حولي، فلا أجد سوى السرير والدولاب، كل المساحاتِ حولي خالية، تُنبت بردًا. أحرقت السرير، ومكثت بجواره حتى صار رمادًا، فجلست بجوار الدولاب المحترق وكان الدخان المنبعث منه يقتلني. البرد أقوى من كل الأشياء المحترقة، فخلعت صورة حبيبتي وأحرقتها على عتبة البيت؛ علّها تُنهي لعنة الزمهرير، أكملت فأحرقت رسائلها وهداياها. لكن البلاء ما يزال باقيًا، فخرجت، أُحيط البيت بكل ما هو قابل للاشتعال وسكبت الوقود عليه، وجلست أشاهد الجدران تحترق؛ ولعدة ليالٍ لم أشعر بالبرودة. خمدت النيران، فوجدت نفسي عارٍ بلا مأوى، وبلا ذكريات. جزعتُ في البداية، لكنني بعدها اعتدت الأمر.

العالم مغطى بالثلوج، ولن أقاتل، بل سأصنع قبرًا وسط الجليد، سأجعل شاهده على شكل رجل الثلج؛ فهو الوحيد القادر على المقاومة بعد موتي. وبينما أكوّر الكرات الثلجية، وجدت طفلًا صغيرًا يحدق بيّ، يراقب صنيعي ويقول بصوتٍ متجمدٍ هامس: "هل تشعر بالبرد يا عم؟" وخلع قميصه الصغير قائلًا: "فلتدفئ

نفسك." وتركني ورحل. حاولت اللحاق به، خشيت عليه أن يقتله الجليد بعد أن خلع رداءه، لكنه اختفى كما ظهر، ولم أجد له أثرًا.

حينما حملت القميص، شعرت بالدفء لأول مرة، كأن الشمس اخترقت الغيوم وأحاطتني بشعاعها الدافئ، شعرت بالحياة تعود إليّ من جديدٍ، فقررت إعادة بناء البيت. كلما تعبت وخارت قواي، أتذكر عين الطفل؛ فأستعيد عزيمتي، وأستكمل العمل. أحمل الأحجار والأخشاب وأضعها في قالبٍ محكمٍ، بعد أن قمت بتفريغ ذاكرتي مستحضرًا هيئة البيت القديمة، كأنني أستعيد كل أيامي الماضية الجميلة قبل الجائحة.

أنهيت البناء أخيرًا، ووضعت لافتة عليه مكتوب بها "بيتُ الدفء". ظهر الطفل فجأة، مصطحبًا مجموعة من الأطفال. خرجت إليه سريعًا، أطمئن عليه، وأشكره على قميصه الدافئ، وعرضت عليه قبول ضيافتي، فأشار لرفاقه، وقال لي: "يمكنكَ استضافة كل الأطفال."

نظارة الطريق

يسير بسيارته في طريقٍ مزدحم، يتأفف عند إشارة المرور، ويلعن يومه عند توقف المسير. يُشير له طفلٌ صغير بأن يتوقف، فلا يستجيب له؛ فيمسك حجرًا، ويلقيه محطمًا زجاج النافذة، الهواء يملأ السيارة، فيفتح النافذة المجاورة إليه هي الأخرى؛ لإحداث التوازن.

يتوقف عند استراحةٍ في الطريق، يأكل، يشرب، ويموّن. يستأنف رحلته، فيلحظ تغيرًا في معالم الطريق، صارت حوافه جدرانًا عالية، لكن كثافة الزحام ما زالت مرتفعة. تختفي السيارات بالتدريج، فيقول لنفسه متعجبًا: أين تذهب هذه السيارات ولا يوجد مخرج؟! تُشير له فتاة عشرينية، فيتوقف، تركب معه، وتخبره أن قيادته رائعة. ومع مرور الوقت تتأفف من طريقته، يستبقيها قليلًا، ثم يركن على جانب الطريق ويقوم بإنزالها.

يستمر اختفاء السيارات مع ازدياد حرقة الشمس، يزمجر الموتور، وتتصاعد الأدخنة من الأمام، فيتوقف؛ فيجد الماء قليلًا في الراديياتير؛ فيزوّده، وينطلق من جديد.

يُشير له شابٌ، فيصطحبه معه، يبادره بقوله: "أنا جائعٌ، هل تملك طعامًا؟" فيعطيه من زاده القليل ويتمنى له الشبع. يرى على يده اليمنى أثر جرحٍ، فيقول له: "ماذا جرحك؟!" فيرد: "جرحني حجرٌ

وأنا صغير." فيسأله: "وماذا أصاب بصرك؟!" فيقول له: "كثرة التحديق أضعفته." فيخلع نظارته، ويمنحها له قائلًا: "خذها، وتذكرني." يتركه عند إشارة المرور، ويُلقي التحية على الشرطي، ويذهب في طريقه.

لا يوجد سيارات سواه، فيظن أن فقدان نظارته هو السبب. تتغير معالم الطريق مرة أخرى، تظهر أشجارٌ ومساحات خضراء على جانبيه، يخرج فجأة رجلٌ عجوز من خلف شجرة عملاقة، يشبه الشاب الذي أخذ النظارة، وحينما يقترب يجده يرتديها بالفعل، ظل محدقًا في وجهه غير مصدق. يقول له مندهشًا: "من أين حصلت على هذه النظارة؟!" فلا يجيبه، ويهمس بصوتٍ ضعيفٍ: "عطشان، أريد ماءً." يعطيه من مائه الموشك على النفاد؛ فيشكره، وقبل أن يرحل يشير للأمام قائلًا: "احذر." سيكمل رحلته، لن يدع مخاوفه ولا كلمات الرجل الخرف تؤثر فيه سلبًا، ينطلق من جديدٍ..

الطريقُ خالٍ، اختفت آخر سيارة، واختفى قائدها. لا يوجد غير أثرٍ واحدٍ: نظارة قديمة قابعة في المنتصف.

طائرٌ حائر

يقول الطائر للفتاة التي تحمل القلب: "هل كنتِ هنا عندما ولدتُ؟" فتضحك قائلة له: "وهل تولد الطيور؟!" يدور حول رأسها، ويقول لها: "وهل ستردين السؤال بسؤالٍ؟" فتمسك بعصا وتهشه؛ يبتعد قليلًا، ثم يعود قائلًا: "قلب من هذا؟!" لا تجيبه، وتسير نحو التلة العالية، ترتقي سُلمًا معدًا خصيصًا لها. يقف أمامها محاولًا تقليد تغريد العصافير، تقول له: "صوتك غير موسيقيّ."

تصل أخيرًا إلى الأعلى، تُصلي في المنتصف، تضع القلب الذي تحمله بين شجيراتٍ وزهور، وتقف صامتة، ثم ترفع يديها عاليًا، تستنشق هواءً جديدًا، ثم تُولّي الموضع النابض ظهرها، وتتجه نحو المنحدر.

يقول لها الطائر: "هل ستتركينه هنا؟!" فتجيبه: "هو دائمًا هنا."

تقطع المسافة إلى الأسفل، تخلصت من حيرتها أخيرًا، كيف سمحت لمشاعرها أن تؤثر على قراراتها، حينما ظهر ذلك الشاب كيف تتبعته دون إرادة منها، انجذبت إليه، رغم تكراره أنه لا يحبها. تشعر بالحرية أخيرًا وهي تنزل الدرجات، تبتسم للطائر، لكنه يخبرها بأنه جائعٌ والمسافة طويلة. فتعود لموضع الشجيرات تبحث عن شيءٍ بين الأعشاب والزهور الملونة، يخشى الطائر

ساعتها أنها غيّرت رأيها، يُحلّق حولها صامتًا، يرفرف بجناحيه بصورةٍ سريعة، لكنها أخيرًا تجد ما تبحث عنه، لقد نسيت الطعام بجوار القلب، بللت كسرة خبزٍ ومنحتها لطائرها فأمسكها بمنقاره الصغير، تأكدت الآن أنه سيصمت إلى الأبد.

بداية

بوجهٍ بشوشٍ يواجه الحياة، يُغلق شقوق الوجع بقلبه، يضع وردةً بيضاء على رأسه، ويُخطو فوق مجرى مياهٍ صغيرةٍ، يدور حول شجرةٍ مثمرة عدّة مرّات، يُصبّح على بائع الفول الحيراتي، فيعطيه حزمةً، ويوشوشه في أذنه: "ربك كريم؛ فلا تحمل همًا."

تشرق الشمس على استحياءٍ، وهو لا يزال يبحث عن عملٍ، نزل من بيته صباحًا، حتى يلحق المقابلة الجديدة، تمنى من الله أن يوفقه في مسعاه. وقبل أن يركب الميكروباص نادى عليه صديقه: "الشركة وافقت على تعيينك." طار من الفرحة؛ فالمقابلة مرّ عليها شهران. قال له: لقد نسيت أنني قدمت عندكم. فرد عليه صاحبه: ربنا كرمنا، وستكون زميلي في العمل كما كنت زميل وصاحب العمر. أتركك لتستمتع بآخر يومٍ بلا عملٍ.. جهّز نفسك يا بطل."

اندس بين الزحام، لا تفارق وجهه الابتسامة، تعجب من تغير حاله، فمنذ قليل كان يجاهد نفسه بألا تسقط في بئر اليأس، ربما هي دعوة السيدة العجوز التي رآها بالأمس، اصطدم بها وهو غارق بهمومه، تأسف كثيرًا، ودعت له كثيرًا: "لا عليك يا بُنيّ، ربنا يرزقك من وسعٍ، ويُنوّلك ما في بالك."

توقف عند بائع الذرة المشوية، أبعد عن تفكيره مشهد وقوفه هنا كل أسبوعٍ مع فتاته، لا يتذكر أين هي الآن، أو ماذا تصنع، أصبح لا

يهمه ذلك. هو لا يشتاقها، لكنه يشتاق لحالة الحب التي كان يعيشها. أخرج عملةً معدنية من جيبه، نظر إلى الشمس وقال لها: يا شمس يا شموسة، خذي عمري، وأعطيني الحب. لكنه قبل أن يلقيها غيّر دندنته فأصبحت: "يا شمس يا شموسة، خذي عمري، وأعطيني راحة البال."

توقفت أمامه فتاة عشرينية، عيناها واسعتان كأنهما بحران مليئان بالأصداف الملونة، نظرت إليه مبتسمة وقالت له: "المكان هنا لطيف، أحب التمشية صباحًا وأكل الذرة." تلعثم وهو يجيب: "بالفعل المكان هنا جميل، والذرة المشوية عشق."

اختفت الأشياء فجأة من حوله، فصار لا يرى أحدًا غيرها في الشارع، كأنها جاءت له خصيصًا، اتجه ناحيتها وقد طرد تلعثمه وقال: "وكأني أنتظركِ." فقالت له ضاحكة: "أو تنتظر شخصًا آخر." فردّ عليها: "أو أنتظر بداية جديدة."

لا يعرف كيف تُبدّل أماكن الأشخاص هكذا، كيف صارت وافدة الذرة قريبة هكذا، ربما يخدعه قلبه، وربما يخدعها قلبها، لكن مشاركة التمشية معها تستحق التجربة، انتظر بداية جديدة فمنحه القدر كل البدايات.

الجدران

يتسرب الخوف إليّ من كل شيءٍ حولي، الجدران خانقة، أراها تتحرك حولي، تتربص بي، وتنتظر أن أنام؛ حتى تسقط فوقي. أظل محدقًا في السقف، أسمع همهماتهم الشريرة.

تقول زوجتي متأففة: "نَمْ؛ حتى لا تتأخر عن العمل." لا تسمع شيئًا مما أسمع، ولا ترى تحركاتهم المريبة، فلم تصدقني حينما قلت لها ذلك، قالت لي: "أعصابك مضطربة منذ مدة، لنأخذ إجازة لتستريح قليلًا."

لم يتغير شيءٌ، صار الخوف كرهًا. لن أتركهم يُكملون مخططهم، لن أتركهم يدمروا حياتي. أسرعت إلى المطبخ، أخذت سكينًا كبيرًا، وخبأته أسفل وسادتي، وأوهمتهم بأنني نائمٌ، وحينما بدأوا تحركهم المريب، أخرجتها سريعًا، وطعنت كل الجدران. ضحكت متشفيًا وأنا أسمع تأوهاتهم، وأرى نزيفهم المستمر.

"أنت مجنون، مجنون" صرخت بها زوجتي، فأشرتُ لها بالصمت، وحذّرتها؛ فالجدران لم تمت بعد. حاولتْ الفرار صارخة، لكنني أَسْكتُّهَا؛ فالنساء دائمات الذعر، وعلى الرجال مثلي أن يكونوا هادئين؛ حتى تمر الظروف العصيبة. أمسكت يدها بقوة، وطعنت الباب، ركلته بقدمي حتى سقط من مكانه، وخرجت لأرى سكان العمارة واقفين، يهمهمون كالجدران، لقد تنكروا في صورة الجيران،

صرخت بهم: "دعوني لحالي." وعدت ألوذ بشقتي بعد أن قتلت كل حوائطها. لا تزال زوجتي تصرخ، أظن أنها أُصيبتْ بانهيارٍ عصبي، قبلتها على رأسها مهدئًا: "لا عليكِ يا حبيبتي؛ ستنتهي المحنة ونخرج سالمين." تركت يدها، وأنا أطعن الجدران المتنكرة التي تسللت إلى شقتنا، كتفني جدارٌ ضخم، لكنني ركلته بقدمي وبعدها دفعته بكل قوتي ليسقط أرضًا، وطعنته عدة طعنات حتى همدت حركته. أنا ماهرٌ في استخدام السكين، صددت الهجوم تمامًا، كان كرهي للجدران يدفعني لقتلهم سريعًا، ومن بقى فرّ هاربًا للخارج. علينا الخروج من هذه العمارة المليئة بالأعداء المتنكرين، سحبتُ زوجتي بقوةٍ، شددتها لنركضا على السلالم، ونخرج للشارع. تزداد الهمهمات وهي ما زالت تصرخ، أُنصت لكلامها فلا أفهم شيئًا، كل ما يصدر منها مجرد همهمات.. هه! إنّها أيضًا حائطٌ مخفيّ، فدفعتها على الأرض بغضبٍ شديدٍ، شعرت بالخيانة تهز كياني، شللتُ حركتها، وانقضضت على رقبتها بسكيني الكبير.

مانح الهدايا

أنتظر مانح الهدايا كل شتاءٍ، فأصفف شعري جيدًا، مستعدًا لظهوره في أي وقتٍ. أكتب له خطابًا ربما يقرأه فيأتي في الموعد. أُجهّز الكاميرا؛ لألتقط له صورة مع غزالاته وزلاجته الطائرة.

لم يظهر أبدًا، كم شتاءٍ مر، وكم صيفٍ جاء وهو لا يأتي

قال لي جارنا العجوز: "هو لا يأتي إلى الأطفال الصغار؛ فأنتم لا تحتاجون لهدايا." تعجبت من رأيه، فلو لم نكن نحن الأطفال بحاجة للهدايا فمن غيرنا يحتاجها. وكأنه سمعني فأكمل حديثه: "أنتم تملكون السعادة المطلقة، دعوا الهدايا للتعساء أمثالنا."

ماتت أمي في شتاء هذا العام، وعلى نغمات صوتها زرعت شجرةً في مكان جلوسها أمام البيت، وحينما كبرت الشجرة صارت تمنحني الظل والثمار، تُثمر في الشتاء وتمنحني هداياها في الصقيع. الشجرة الأم حينما نظرت إليها من نافذتي في اليوم الغائم كانت تحوم حولها الغزالات بزلاجتها الطائرة. لقد جاء أخيرًا مانح الهدايا!

أنا حر

ينتشلني صوت المنبّه من نومي، أستكشف المكان حولي بحركة عيني السريعة، لا أنتمي لتلك الغرفة، ولا أعرف تلك المرأة التي تدندن في الحمام. صوت العصفور الرماديّ على النافذة مقيتٌ. بحركةٍ آلية أقوم، أتجه للحمام، وأطرق بابه؛ فتخرج مرتدية روب أبيض ناعم، تجفف شعرها المبتل بفوطةٍ وردية، وتقبلني على وجهي قائلة: "صباح الخير يا حبيبي." أجتازها وأدخل الحمام، زخات الدش الباردة تضرب جسدي كسوطٍ يعرف نقاط ضعفي، أرتد سريعًا للوراء، فأصطدم بالجدار. أسمع صوتها من الخارج: "استخدم الماء الساخن لا البارد كعادتكَ." أرد عليها بغيظٍ: "قلتُ لكِ مئة مرة أحب الاستحمام بالماء البارد." أنظر للسخان فأجد لمبة التشغيل مطفأة، أُشَغّله وأنتظر قليلًا ثم أدع قطرات الماء الساخنة تنساب على جسدي.

أخرج كآلي فقد برمجته، أتخبط بلا هدىً أو هدف، أفتح الخزانة، فلا أشعر بالألفة مع تلك الملابس، أحدق بها ولا أعرف ماذا أرتدي، جاءني صوتها: "البدلة الكحلي على اليمين، يمكنكَ ارتداؤها اليوم." لم أناقشها، بل تحركت يدي فألتقطتها لأرتديها.

أحاول التعرف على المكان، لكنني كالطفل التائه، كلما تقدمت خطوة للمعرفة، تطمسها ذاكرتي، فلا شيء مألوفٌ هنا.

صوتها يأتيني مرة أخرى ليخرجني من شرودي: "الإفطار جاهز." فأجلس قبالتها محدقًا بها، تنظر لي متعجبة وتقول: "كُلْ، حتى لا تتأخر عن العمل." لا أستسيغ الطعام، ألوك بعضه وأقوم، أهبط درجات السلم، وقبل اجتياز باب العمارة، يظهر رجلٌ أسمر يرتدي جلبابًا، ويقول: "المصعد متعطل، ويجب إصلاحه." لا أعيره اهتمامًا، وأتعجب أنني لم أحاول مع المصعد وهبطت الدرجات، كأنني أعرف مسبقًا عن العطل. أمشي في الشارع، فلا أتعرف على ملامح الوجوه التي تبتسم لي، ولا تلك الأيدي التي تمتد لي مصافحة.

أُخرج هويتي، فأجد أنني أعمل محاسبًا ماليًا في شركة غزلٍ، أكسرها دون تفكيرٍ، وألقيها بعيدًا، وكأنني أريد اختيار هويتي الجديدة. أشعر بالاختناق، فأفك رابطة عنقي وأرميها هي الأخرى، يتسلقني الوهن؛ فأشعر بالدوار مع ازدياد الاختناق. أخلع سترتي وأتركها على الرصيف، كأنني بفعلتي أنتظر تغيّر الأمور. شيءٌ يضغط على جسدي، أحاول التحرر فأتعرى من قميصي وبنطالي. تهاجمني نظراتٌ مستهجنة، سرعان ما تنقلب لشفقة. يضرب عجوزٌ كفًا بكفٍ قائلًا: "يا حول الله، لقد أصابه الجنون." أشعر بخفةٍ في ساقيّ، فأهرول في الشوارع، وأتنقل من مكانٍ لآخر دون قيود، يزفني الصبية مرددين: "المجنون أهو! المجنون أهو!"

أتنفس بعمقٍ، أشعر بالتحرر من كل شيءٍ، لست مضطرًا بادعاء معرفتي وانتمائي لما حولي. أركض بأقسى طاقتي، أفرد ذراعيّ كجناحيّ طائرٍ يحلق، تخرج الكلمات بعنفوانٍ لا يمكن إيقافه: "أنا حرٌّ، أنا حرٌّ."

مقايضة

تقول السيدة المقعدة لطفلٍ يشبه ابنها الراحل: "هل رأيت ابني؟" يلتفت الصغير يمينًا ويسارًا، ثم يقترب منها قائلًا: "أنا أمامكِ يا أمي." تأخذه بين ذراعيها، فيبكي بكاءً مريرًا، تقول له: "لن تبكي بعد الآن يا ولدي."

كان منذ قليلٍ قد طُرد من الملجأ الذي يأويه، وكانت هي في انتظاره بعد أن فقدت ولدها.

سنواتي السبع

في السنة الأولى كنت أزحف على ضفيرةٍ من ليفٍ، أتشبث بالنتوءات الواضحة، لكن قواي تضمحل مع الصعود، وحينما تأكَّدتُ من وقوعي، تصنّعتُ عدم الخشية، وأظهرت أنني أهوى الوقوع.

في السنة الثانية كنت أبكي أسفل الشلال، فرأتني حارسة القلب، فأوهمتها أن المياه باردة، وبأن الله لم يستجب لدعاءٍ دعوته منذ عام، أن يخفف عني الألم ويدفئ الماء ويقوي عضلاتي المنهارة لحظة السقوط.

في السنة الثالثة كنت أهيم على وجهي في الصحراء، تجلدني الشمس بلهيبها، ويضغط الصهد على أنفاسي؛ فأشعر بالاختناق. لكنني عندما رأيت زهرةً على الجانب الآخر، تماديت في الظنون، وأوهمت القائمين على الزرع بأني جسدٌ بلا روح، لا أحتاج إلى التنفس ولا إلى الغذاء.

في السنة الرابعة لم أتذكر كل الأفعال التي صنعتها في السابق، لكنّ خطابًا مدفونًا في قلبي ذكّرني بكل شيءٍ.. رحلت أو لم أرحل، صنعتُ طوْفًا خشبيًّا، أو لم أصنع، كل ما أتذكّره حقيقةً هو عيناها اللّتانِ طافتا حولي؛ فأحببتها.

في السنة الخامسة صنعت سلمًا للسماء، فلم تُفتح النوافذ، ولم تستقبلني الأبواب؛ فجلست بين الأرض والسماء أصلي. كلما رأيت سحابةً لعنتها، وكلما طافت بي نجمةٌ زجرتها، وفي نهاية العام تجلى الله فأنار قلبي.

في السنة السادسة حملتُ طفلتي إلى حافة الكون، علّمتها أن الله هنا، وعلمتني أن الله بقلبها.

وفي السنة السابعة تركتُ صغيرتي ورحلتُ، لا أذكر شيئًا بعدها، نسيت حتى لون عينيها، لكنني ما زلت أسمع صوتًا صادرًا من قلبها، يعيد الأعوام للبداية.

صاحب الكلب

أركض صغيرًا خلف الكلاب الضعيفة، أُمسك ذيلها، وأدفن بعضها هي وصغارها. فصاروا كلما رأوني يهربون، إلا كلبٌ واحد، لا يشعر بمهابتي ولا يخاف، كلما رآني يهرول نحوي، ويمد لي يده فأصافحه، على غير عادتي لا أمسه بسوءٍ. مع مرور الوقتِ، أصبحت أطعمه، وصار رفيقي في كل الأماكن التي أذهب إليها. علمني السباحة في المجرى المائي، فكنت أحرك يديّ ورجليّ مثله. وصار صديقي الوحيد، نركض سويًا صباحًا، وفي المساء نجلس أسفل شجرة التوت، نجوت من قسوتي بسببه، واستبدلت شقاوتي بحراسته، فكان يهاجم كل من يحاول التعرض لي، فنبش بأسنانه ذراع أحد الجيران الأشقياء، حينما حاول أن يُلقي عليّ حجرًا.

لا أفارقه ولا يفارقني، حتى أطلق الأهالي عليّ لقب "صاحب الكلب"، وكنت سعيدًا بهذه الكنية. غاب فترةٍ كبيرة، بحثت عنه في كل مكان ولم أجد له أثر، اختفى تمامًا، خشيت عليه، وتمنيت لو يظهر بضع دقائق ليطمئنني عليه وليختفي من جديد.

بعد أن فقدت الأمل في العثور عليه، ظهر فجأة ليلًا، كنت أسير في شارعٍ خالٍ من المارة، ركضت نحوه عند رؤيته، لكنه نظر لي نظرةً شرسة، ظننتُ أنه يلعب معي، يُعبر عن سعادته لرؤيتي بهذه الطريقة، لكنه غرس أسنانه في ساقي، ودفعني بكل قوته؛ فسقطت

أرضًا، وظل يقضم بجسدي بجنونٍ، انعقد لساني من الصدمة، فكلبي الحبيب صار مسعورًا. استسلمت لعضاته المتتابعة، كانت فرصة لأتحرر من ذنبي القديم، وبعد أن تعبَ، توقف، ورأيتُ حزنًا عظيمًا في عينيه، رمقني بغضبٍ يختلط بألمٍ، واختفى خلف الأشجار. تحاملت على نفسي، وقمت أتتبعه، فرأيته يجلس بجوار حفرةٍ من حفري التي كنت أدفن بها الكلاب الضالة. تذكرت كلبةً وأولادها، ربطت الآن بين الشبه بينه وبينهم، وكأنني أراه يبكي، ويحمل حزنًا لا يطاق، وحينما لمحني من جديدٍ، أدركت أنه علم كل شيءٍ، فأبدل نظرات الحزن والضعف قسوةً، وركض بعيدًا، بعيدًا.

المرايا

يكرهُ المرايا منذ صغره، فلا يقترب منها أبدًا، يهندم ثيابه ويصفف شعره دونها. مرت السنوات وهو كما هو، أنهى عقده الثالث، وفي ذكرى مولده أعطته حبيبته مرآة هدية، فوضعها بغلافها بصالة البيت، لم يفكر يومًا في النظر إليها.

أحس بالعطش ليلًا، مر أمامها دون أن يدرك، فلمح شبحًا بداخلها، فزع بشدة وتساءل كيف سقط الغلاف عنها؟ طمأن نفسه ربما تهالك من طول المدة. يعلم داخله أن الصورة المنعكسة صورته، لكنه لن يكرر التجربة. أكله الفضول على غير العادة، فاقترب منها متخوفًا، ورأى طفلًا صغيرًا يتفحص وجهه؛ ارتعد وابتعد مسافة مترين، لكنه صار لعبة في يد الشغف، فعاد مرة أخرى، ما زال ذلك الطفل يتفحص وجهه، رفع يده، فرفع الطفل يده، أغمض عينًا وفتح الأخرى، ففعل الطفل ما يفعل؛ تعجب فهل تعكس المرايا صورنا ونحن أطفال؟!

اعتاد النظر إليها كل يومٍ، يصفف شعره، فيصفف الطفل شعره. لمح بها ذات مساءٍ صورة رجلٍ عجوز، يمتلئ وجهه بالتجاعيد، وشعره ملأه الشيب. شعر بأنه مومياء خاوية الجوف، وهاجم الوهن جسمه؛ فانحنى ظهره، وضعفت ساقاه. يبحث عن عكازٍ يستند عليه. أي لعنة تسكن تلك المرآة، أم أن كل المرايا ملعونة؟!

صار لا يفعل شيئًا سوى التأمل بالساعات لصورته المنعكسة، تيبست أطرافه، ورأى انعكاسه مختنقًا. يشعر بيدٍ تمتد إلى رقبته، يحاول الفكاك لكنه لا يستطيع، وقبل أن يغيب عن الوعي، تشبث بآخر قواه واستمات فدفعها، وسقطت متكسرة. شعر بالتحرر والانعتاق، استوى ظهره من جديدٍ، ألقى بعكازه بعيدًا، وأسرع للهاتف، اتّصل بحبيبته، وقال لها بلهفةٍ: "تتزوجيني؟"

النافذة

تمد النافذة بصرها للخارج؛ فترى بلكونة أمامها، يجلس بها شابٌ يقرأ في كتاب ما، وترى بيوتًا قديمة اللون، تشع بريقًا تاريخيًا. يتبرم زجاجها، وينادي على الشيش: "لا تحجب عني الضوء." يرتد بصرها للداخل.. غرفة وردية اللون، بها سرير صغير، ودولاب بنفس لون الحوائط إلا أنه أفتح قليلًا. في المنتصف فتاة عشرينية العمر تقفز على إيقاعٍ منبعث من هاتفها، شعرها الأسود الناعم يتطاير معها مبتهجًا. تتوقف فجأة عن صنيعها، وتسير على أطراف أصابعها وتنظر نحو الشاب القارئ وتبتسم، تلتقي أعينهما في لحظة عشقٍ خجلى. تدفعها النافذة للخلف، فيحول بينهما الشيش، يستمر الحصار، ويُغلَق الزجاج وهو يبتسم امتعاضًا.

تُغمض النافذة عينيها وتنام قليلًا، تمتد إليها يدٌ عابثة وتفتحها، تقف الفتاة بشعرها الراقص وتضع يديها على جِلْسَتِها، تنظر إلى الشاب وتهمس في قلبها: "لن يحول بيني وبينك شيءٌ."

يبادلها النظرات، ويقرأ قلبها، فيغلق الكتاب، ويُلقي إليها بوردة حب، ولأول مرةٍ تستجيب النافذة.

ماكينة الغزل

ماكينة الغزل اعتزلت العمل بشارع النساجين، وبحثت عن مهنة جديدة، فعملت راقصة بالاهتزاز، وغسالة ببيتٍ ميسور الحال، لكنها لم تجد هويتها في أي عمل قامت به.

تجلس على مقهى الماكينات، تحتسي مشروبها المفضل، وتلعب مع قرينتها ماكينة الخياطة. لم يفارقها شعور الملل أبدًا، حتى اقترب منهما طفلٌ ثيابه مهترئة، يرتعش بردًا، فنظر إليها بكل احترام وود قائلًا: "من فضلك يا سيدتي أريد ثوبًا منسوجًا."

ساعتها عقدت اتفاقًا، تغزل هي الخيوط وتنسجها، وبعدها يأتي دور قرينتها في الحياكة. شعرت أخيرًا بأهميتها، ولم تتوقف عن الغزل أبدًا.

الحكيم

فشل في كلّ شيءٍ، أراد أن يجد من ينصحه، ويرشده. بحث كثيرًا حتى دلُّوه على حكيمٍ يعيش في كوخٍ بأحد الجبال: "اذهب إليه، واحكِ له. هو سيُرشدكَ."

اجتاز الغابة المظلمة، وعرَّج على البحيرة وسط الوادي الكبير. ها هو الجبل الذي أخبروه عنه. تعب كثيرًا في رحلة البحث، لكنّه كان يُصبّر نفسه ويقول: "بعد أن أجده ستُحلُّ كلّ مشكلاتي؛ يجب عليَّ إذًا الصَّبر والتحمُّل."

أخيرًا وجد الكوخ، كان قديمًا، أخشابه شاحبةٌ من أثر الزَّمن، النَّباتات المتسلّقة تُمسك به، وكأنّها تخشى عليه مِن السّقوط. الباب مغلقٌ، لم يستطع الدّخول، فدار حوله، وجد نافذةً صغيرةً أُغلقتْ بقطعٍ خشبيَّةٍ، بها فتحةٌ صغيرةٌ، رأى من خلالها موقدًا، ومائدةَ طعامٍ، على الجانب الآخر رأى رداءً مهترئًا، مُعلَّقًا على الحائط.

جلس بالخارج، يتحدَّث لِمَنْ بالداخل بعد عجزه عن الدُّخول: "منذ أسبوعٍ وقفتُ أمام حبيبتي، لم أستطع النطق، أو البوح لها. كم أحبُّها! لقد فشلت، فشلت." سكت برهةً حزينًا، ثمَّ برقتْ عيناه، وأخذ يوجِّه كلامه للحكيم مرَّةً أخرى: "ترَىْ أن أذهب إليها وأخبرها؟ لكنَّها قد تَصُدُّني، قد تسخر من مشاعري. لا، لن تفعل؛

فأنا حقًّا أُحبّها، وأراها تُحبّني أيضًا فهي تُحبُّ أن تحكي لي دومًا عن مشكلاتها الشّخصيّة، عن كلّ ما تفعل.. عن أبيها الذي يتشاجر مع أمّها دائمًا، عن أخيها الذي يُعاكسُ الفتيات، ويُطاردهنَّ في الشَّوارع. حسنًا، حسنًا. سآخُذُ بنُصحكَ، وأُخبرها."

أفرغ جيوبه من النّقود، في الصّندوق الخشبيّ الموضوع فوق النَّافذة، وذهب.

بعد قليل جاء متسوّلٌ، ممزَّق الملابس، غير مصفَّف الشَّعر، لحيته كثيفةٌ. رأى النُّقود بالصُّندوق، فقفز فرحًا صائحًا: "رزقي، بعثه الله لأجل عيالي." أخذ النُّقود، وهو يُردّد: "سأمُرُّ كلّ يومٍ من هنا."

***

جاءَ مرَّةً أخرى بعد عدَّة سنواتٍ، وقف أمام الكوخ، ونباتاته المتسلّقة، رأى من خلال النَّافذة الموقد، ومائدة الطَّعام، وذلك الرّداء المهترئ المعلَّق على الحائط. جلس بالخارج، وأخذ يكلّم الحكيم: "أشكركَ يا سيّدي أن أرشدتني، لقد أخبرتُها بحبّي لها، وعشقي. هي أيضًا تحبّني، تزوَّجنا، وأنجبنا طفلين، هما حياتي كلُّها. ليس هذا ما جئتُ لأجله. مديري في العمل يُعاملني بطريقةٍ سيِّئةٍ، يستخفُّ بي، ويُهينني. لم أستطع تدوين حسابات العمل بطريقةٍ جيِّدةٍ، بل لم أستطع تدوينها أصلًا، لم أعرف ما أفعل! كانت برأسي طريقة تدوينٍ معيَّنةٌ، لكنّي وقفتُ عاجزًا! فشلت، قد فشلت. جاء

المدير، وبَّخني قائلًا: أنتَ موظَّفٌ مهملٌ. وخصم من راتبي عشرة أيامٍ، وأمهلني شهرًا إن لم أُنهِ تدوين الحسابات سأُفصل. أرجوكَ سيِّدي. ساعدني، قِفْ بجواري."

يبكي بحرقةٍ؛ تذكَّر أنّه سيُشرَّدُ وأبناءَهُ، وزوجتَهُ. سيُعانونَ كثيرًا حتَّى يجد عملًا آخر. صمتَ برهةً، وبرقتْ عيناه.

"تَرَى أن أُرتّبها حسب التَّاريخ، وقيمتها البنكيَّة، أن أضعها في دفتر اليوميَّات، ثمَّ في دفتر الأستاذ؟ نعم، نعم، هكذا ستكون واضحةً. سأقوم بعمل تقريرٍ موجزٍ نهاية كلّ شهرٍ؛ حتَّى أتمكَّن مِن المراجعة أوَّلًا بأوَّلٍ."

أحسَّ بسعادةٍ غامرةٍ، لا يدرِي ما يقدمه للحكيم على جهده ومثابرته معه. قال له: "أشكرك سيِّدي. لا أعرف كيف كنت سأحلُّها دون نصائحك الغالية." أفرغ جيوبه من النُّقود، وضعها في الصُّندوق الخشبيّ الموضوع على النَّافذة، وذهبَ. بعد هُنَيْهَةٍ جاء الرَّجل المتسوّل، وجد المال، ففرح فرحًا شديدًا، وقال: "أشكرك يا الله؛ دائمًا تُنقذني في الوقت المناسب، لم يكن معي أيُّ نقودٍ آكُل بها."

***

استمرَّ حاله هذا طويلًا، كلَّما قابلته مشكلةٌ ذهبَ إلى الحكيم؛ ليأخذَ نصائحه الغالية، ويعود سعيدًا، بعد أن يجد الحلَّ.

يشتاقُ لرؤيته. في كلّ مرَّةٍ يتضرَّع له؛ لِيراه، وفي كل مرة يخيب رجاؤُه

***

جاء هذه المرَّة حسن الهندام، لا تُفارق وجهه الابتسامة، حاملًا الكثير من الهدايا، صار يملك سيارةً فخمةً، جاءتْ معه زوجته؛ لترى صاحب الفضل عليهما.

الباب مغلقٌ، النَّافذة موصدةٌ بقِطَعِ خشبيَّةٍ، بها فتحةٌ صغيرةٌ، لا يظهر منها سوى الموقد، ومائدة الطَّعام، وذلك الرداء المُهترئ المعَلَّق على الحائط.

أخذ يصيح: "سيِّدي الحكيم، أتيتُ لأشكركَ على كلّ ما صنعتهُ لي، زوجتي أيضًا جاءتْ معي؛ لتشكركَ هي الأخرى. أرجوكَ اخرج لنا. أريد أن أراكَ، أن أقبِّل يديكَ." فلم يُجبه سوى الصَّمت، فبَدَأ متوتِّرًا، عصبيًّا: "أرجوكَ سيِّدي دعني أراكَ." بكى بشدَّة، وأُصيبَ بنوبةٍ هستيريَّةٍ، فذهبَ إلى الباب، ودفعه بكتفه. نادتْ عليه زوجته: "لا، لا تفعلْ." أمسكتْ بذراعه، لكنَّه دفعها، فسقطتْ أرضًا، وبكلّ ما أُوتي من قوَّةٍ، دفع الباب، وكسره.

الكوخ خاوٍ ، ليس به أحدٌ! لم يجدا سوى موقدٍ، ومائدةِ طعامٍ، ورداءٍ مُهترئ مُعلَّق على الحائطِ!

العملاق

استيقظ مبكِّرًا، دخل الحمَّام مُسرعًا؛ حتَّى لا يتأخَّر عن عمله. يغسل أسنانه بالفرشاة، فيلاحظ شيئًا غريبًا: الفرشاة تكبر في يده، ويزداد وزنها! الأشياء تكبر من حوله. أصبحت رأسه أسفل حوض الوجه، كادت فرشاة الأسنان أن تُحشر بفمه، فألقاها سريعًا على الأرض. شحب وجهه بشدَّة، الذُّهول والرُّعب يزلزلان كيانه، صرخ بأعلى صوته، فلم يسمعه أحدٌ. يتضاءل جسده ويقلُّ. أخذ ينتحبُ، لم يكن يدري ما يحدثُ له.

كادت زوجتُه أن تدهسه بقدمها، لولا أن ابتعد عن طريقها سريعًا. حاول أن يحادثها، أن يعلن لها عن وجوده. لكن ضاعت كلُّ محاولاته هباءً. ورأته القطة التي يُشاكِسُها دائمًا، فحسبته فأرًا، وأخذت تجري خلفه.

خرجَ مُسرعًا من المنزل، هائمًا في الطُّرقات، مُجتازًا الكثير من الأحذية التي كادت تسوِّيه بالأسفلت.

داهمته الذِّكرياتُ ..

"في امتحانات الثانوية العامة أخرج ورقةً صغيرةً كانَ قد خبَّأها بملابسه، نقل الإجابة. رجع فرِحًا، أخبرَ أمَّه أنه أجابَ عن كلِّ الأسئلة".

حاول أن يتكيَّف مع وضعه الجديد، حاول أن يبتعد عن المدينة وضجيجها، سار في اتجاه الطَّريق الزّراعيّ، وجد نفسه في حقل ذرة، اجتازه ودخلَ بُستانًا ممتلئًا بأنواع الفاكهة. يشعر بجوعٍ شديدٍ، فصعد شجرة مانجو بصعوبةٍ بالِغةٍ، وحاول أن يأكل من ثمرةٍ ضخمةٍ من ثمارها، لم يستطع؛ فالقشرة الخارجية سميكةٌ جدًّا وقويَّةٌ.

يشعر بالوَهنِ ..

"يسير بين جموع المتظاهرين منددًا بسياسة الحكومة. بجواره تلك الفتاة التي خرج من أجلها تبتسم. فرح فرحًا شديدًا، وأحسَّ بالزهو عندما أمسكَ بالجريدة، وصورتُه بإحدى صفحاتها مكتوبٌ تحتها المناضل"

هبط من شجرة المانجو، وصعد شجرة تفَّاحٍ، تعلَّق بإحدى ثمارها، وأخذ يأكل بشراهةٍ. جاءت ذبابةٌ ملونةٌ عملاقةٌ تريد أن تضع بيضاتها داخل الثمار، أشاح بيده؛ حتَّى تبتعد، تُحلِّق برشاقةٍ كبيرة، وتهاجمه، فاختلَّ توازنه وسقط، أمسكَ بطرف ورقةٍ قبل أن يرتطم بالأرض. انتزع عودًا جافًّا، وبدأ يقاومها. يخفّ وزن العود، ويقلّ حجمه بين يديه، ينمو جسمه ببطءٍ شديدٍ، يتحرّك بين

الأغصان برشاقةٍ كبيرةٍ. مناورًا مرَّةً، مهاجمًا مرَّاتٍ، وفي النّهاية أعلنت الذُّبابة استسلامها، وابتعدت.

نزل من فوق الشجرة؛ ليجد بجواره بعض النَّمل يحملون بقايا طعامٍ تبقَّت من الفلاَّح الذي يرعى الأرض، وبعض حبوب الذُّرة من الحقل المجاور، يسيرون في ثلاثة صفوف، صف به النَّمل غير المحمَّل، يسير أسرع -نسبيًّا- من الصَّفَّين الآخرين، وآخر به النَّمل المحمَّل بالأطعمة، والثالث به عددٌ قليلٌ من النَّمل يُنظّمون المسيرة. قطعتْ الطريق قناية ترويِ البستان، فصنع النَّمل جسرًا من أعواد الأشجار الجافَّة حيث ربطوها بأجسادهم، ووجوههم غاطسة في المياه، وماتوا على هذه الحالة. ترقرقت الدموعُ في عينيه، وقد غاص في تفكيره مرَّةً أخرى ..

"يجلس خلف مكتبه في العمل، تقف أمامه شابةٌ جميلةٌ، تقولُ له: لقد أعطيتكَ الملفَّ بعدما أنهيته، وأنتَ أضعته، لو لم تقل الحقيقة سيتمُّ فصلي من العمل. فيرد عليها: لم أوقِّع على استلامِه."

أفاق من شروده على موجةٍ صغيرةٍ من المياه جاءت مسرعةً، لتصطدم بالجسر الذي لم يصمد كثيرًا، وبدأ يزحف منجرفًا، أوشكَ النمل -الذي يحمل الطَّعام فوقه- على السُّقوط، أمسكَ بعودٍ ضخمٍ؛ ليستخدمه ركيزةً تمنع الانجراف، أسرع نمل الطَّوارئ لمساعدته، وتقليده بجلب عددٍ كبيرٍ من الأعواد. أخيرًا استقرَّ

الجسر في مكانه. شعر بالألفة بين النَّمل؛ لقربه من حجمه الصَّغير. نظرت إليه النملاتُ بامتنانٍ.

ينمو جسمه رويدًا رويدًا، أصبح مثل الأقزام؛ فرجع إلى المدينة مرَّةً أخرى، رأى امرأةً عجوزًا تعبر الشَّارع، السَّيَّارات تمرّ من أمامها بسرعات جنونيَّةٍ، أمسكَ بيدها، وعبر معها للجانب الآخر. عاد جسده مرَّةً أخرى لطبيعته، لكنَّه لم يتوقَّف عن النّموّ، ومع مرور الوقت أصبح ضخمًا، يهابه الناس. ذهب للصَّحراء، واستصلح جزءًا كبيرًا منها، يحمل المياه من النهر على كتفه بواسطة وعاءٍ ضخمٍ. وعند الحصاد يوزّع على الناس الفاكهة والقمح، ومع مرور الوقت جاء بجواره الكثير من الفلاَّحين؛ ليزرعوا أراضي أخرى، يرويها معهم، ويساعدهم في حرثها. بنيانه يتعملَق أكثر، تتضاءل الأرض بجواره، صارت صغيرةً جدًّا.

* اكتشف علماء الفضاء جرمًا ضخمًا يقترب من الأرض، حسبوا المدَّة التي سيجيء فيها ليصطدم بها، ثلاثة أيام فقط.

خاف الناس، وامتلأوا ذعرًا، أحسّوا أنها النّهاية، فجلسوا في الطّرقات يصلّون، وهم يشاهدون اقترابه عبر شاشات عرض كبيرة، وُضعتْ في الشَّوارع، وعلى واجهات العمارات. لم يتبقَّ غير لحظاتٍ ويحدث الاصطدام.

ظهر فجأةً، وقد تحرَّر من الجاذبية، وقف بين الجرم والأرض، ووضع يده اليمنى عليه، واليد الأخرى على الكوكب المهدد بالفناء،

يتحسَّس الأماكن الخالية من السّكَّان، من ثلوجٍ وصحارى؛ حتى لا يقتل أحدًا عن طريق الخطأ. يدور الجرم بشدَّة، فتظهر المعاناة عليه، وأُدمِيَتْ راحته. بكى الناس من أجله، كأنهم يمرون بما يمر به من ألمٍ. ارتدَّ الجرم فجأةً مُبتعدًا. ودمعت العيون فرحةً بالنَّجاة.

يسبح في الفضاء الواسع، تحوَّل لكتلة نور كبيرةٍ ونجمةٍ تهدي الناس في ظلام الليلِ وتُرشدهم إلى الطريق.

الثورة الملعونة

يداري وجهه عن الشمس، والمارة، وواجهات المباني، يترنح يمينًا ويسارًا، ويتعثر في أحجار الطريق، يلعن يومه، يلعن المدينة، ويلعن نفسه. الثورة بركانٌ داخله، تمحو كل شيءٍ جميل، تزلزل الأرض، وتهز الجبال، تغلف الأنهار بطبقة جليد سميكة.

منذ عام خرج يبحث عن حريته، يروح ويجيء في الميدان، يصرخ في وجه الجنود: "الشعب يريد إسقاط النظام." قنابل الغاز تخنقه، يبكي بلا حزنٍ، ويحاول اللجوء لمكانٍ آمن، فلا يجد غير ممرات المترو، تتحرك الحوائط من حوله، وتضيق الممرات عليه. يراها في آخر الممر، تظهر له من بين السواد والدخان، يفرك عينيه مستوضحًا صورتها، فيشعر بألمٍ شديد بحدقتيه، ينادي عليها: "حبيبتي لماذا رحلتِ؟ لماذا ذهبتِ في العام الجديد؟ من أين جلبتِ تلك القسوة؟!" يسقط مغشيًا عليه على درجات السلم، تتسلل رائحة الخل إلى أنفه، فيفتح عينيه بصعوبة، يدور ببصره في أرجاء المكان ليكتشفه، فيجد أجساد الشباب ملقاة على الأرض كأنها بذورٌ تنتظر الماء لتقف ماردًا في وجه السواد، يرى فتاة تستند على الجدار بجواره، تحمل زجاجة خل في يدها، وتنظر إليه قائلة: "أنت أفضل الآن؟" ينظر لوجهها فلا يتبينه في الظلام، يشكرها ويقوم مستندًا على الجدار. صوت ارتطام أحجار المتظاهرين

بأسوار الميدان الحديدية طائرٌ جارح ينقض على فريسته فينتزع قلبها، الرصاصات تُزرع في القلوب؛ فتحصد الأرواح. ينادي على صديقه الذي ظهر من بعيدٍ، يبكي بحرقة قائلًا: "هؤلاء ليسوا مصريين." فيأخذه بين ذراعيه، ويهمس في أذنه: "لا تحزن؛ الحق معنا." المدرعات تخترق الميدان، تدهس كل من يقابلها، يهرول هو وصديقه، يصيح: "يا أولاد الكلب." الليل يدهس النهار، وتنتحر الشمس خجلًا من دماء القتلى.

يزحف الشباب نحو الجند، يقابلون القوة الغاشمة بنور قلوبهم، وبشموس أرواحهم. تخترق كتفه رصاصة؛ فيسقط أرضًا. تتداخل الصور من حوله، الطيور تحوم مذعورة، والنيل يخترق الميدان، تثور أسماكه، والأرواح المفارقة للأجساد تنمو أشجارًا على سطح مياهه، القمر يهبط مقبّلًا أغصانها وأوراقها. يتحامل على نفسه، فيتذكر أمه وهي تمسك به: "لن تذهب، ألا ترى ما يحدث؟!" ينظر بعينيها مبتسمًا: "سأذهب يا أمي، لا تخافي، قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا."

يحمله صديقه على كتفه، ويضعه بجوار إحدى البنايات البعيدة نسبيًا عن الأحداث، وفي إفاقته القصيرة يرى على رأس صديقه ضوء ليزر، يحاول أن يحذره بصوته الواهن، لكنه يسقط بجواره وقد اخترقت رأسه رصاصة ظالمة. تتحجر الدموع في عينيه، قلبه قطعة جليد تبكي، يحاول أن ينطق، أن ينادي عليه، لكنه مقيدٌ

بخيوطٍ عنكبوتية لا سبيل للفكاك منها، يستلقي بجواره، فيصافح روحه، ويأخذ منه تفاحةً يقضم منها قضمةً، وتختفي من يده.

الجَمَلُ يَخْتَرِقُ أَرْضَ الْوَطَنِ،
يَأْكُلُ عُشْبَهُ،
يَشْرَبُ مَاءَهُ،
يَدْهَسُ زَهْرَةً ضَعِيفَةً فِي الْمِيدَانِ،
فَتَأْخُذُ قُوَّتَهَا مِنْ شُعَاعِ الْوَطَنِ،
وَمِنْ دَمْعِ أُمٍّ انْتَظَرَتْ وَلِيدَهَا لِيَتَسَلَّقَ جِدَارَ الْحُلْمِ،
فَصَعِدَ جُدْرَانَ السَّمَاءِ.
سَقَطَ الجَمَلُ وَسَقَطَ العَسْكَرُ
سَقَطَتْ وُجُوهٌ فَخَّارِيَّةٌ..
وَبَقِيَتِ الزَّهْرَةُ.

الميدان مدينة فاضلة، من يعبر نقاط التفتيش يُلقي شخصيته بالخارج، ويدخل بروحٍ جديدة، روح لا تعرف الظلم، لا تعرف إلا الحب والعدل، فيصطف المتظاهرون كالعقد الماسي يُزين الوطن.

يتصل بخطيبته، يخبرها بأن كل شيء بخير، تقول له: "لا أعرف كيف تستطيع أن تحادثني في هذا الجو." يقول لها: "لم نأتِ هنا لنموت، بل لنعيش."

تنحى الرئيس، فطاف الميدان محتضنًا كل من يقابله، رأى وجه صديقه في كل الوجوه، رأى وجه حبيبته مرسومًا بألوان الطيف في السماء، بكى، تمناها معه الآن، يسيران بين حدائق السماء، يطوفان مصر، يجلسان أسفل شجرة في ريفها، يصعدان سلم أحد بناياتها، يسرقان قبلةً، يفران عند سماع صوت حارس البناية، يتضاحكان بصوتٍ عالٍ، يمسك يدها ويعبرا بحر الخوف، والظلم.

لن نفترق يا حبيبتي بعد الآن، الثورة رياحٌ قوية، تُغيّر القلوب والعقول. يرى دموعها وهي تختفي من أمامه، سنفترق يا حبيبي، فعلنا ما بوسعنا، الله لا يريدنا أن نكون سويًا، لقد حاولنا ستة أعوام، كلما أطلقنا طائرًا للحب، تُصيبه رصاصات القناصة، فيسقط ليبني بيننا جدارًا لا يمكن إزالته.

يبكي، ويصرخ، تختفي صرخاته بين أصوات الشعب الفرحة: "لماذا رحلتِ يا حبيبتي، الثورة نجحت، باستطاعتنا أن نفعل كل شيء، فلتقويني، لِمَ لا تنطقين؟!"

يتحول طيفها لتمثالٍ بلا ملامح. يبكي، وتمزقه دموعه، يشعر أنه معلقٌ على جرفٍ عالٍ، يوشك أن يسقط على أسنة الأحجار

المدببة، فتحيطه أرواح الشهداء، تحمله على بساطٍ من نورٍ، تنثر حوله الورود، وتضع على وجهه ابتسامة لا تُمحى.

يعود لعمله، يرفع رأسه عاليًا، الثورة شعاع نوراني يضيء الشوارع والأبنية، يضع بالقلوب تراب الوطن المعطر بماء النيل، سماء الوطن مختلفةٌ، تراب الوطن مختلفٌ، شعب الوطن ليس نفس الشعب، تحية عسكرية للشهداء، الثورة على الطريق.

نشبت الخلافات بينه وبين خطيبته، لا تتذوق زهرته، وهو لا يرى زهرتها بالمرة. الثورة ضلت الطريق، قُيدت وأُلقي بها في البحر المالح، يحاول أن يمنحها نفسًا يوقظها، فيعود للميدان، الأعداد قليلة، والشرطة تضرب بضراوة، الجيش يقتل نبات الوطن، يُلقي بجثته للذئاب، أحاطه الجنود، وانهالوا عليه ضربًا، اختفى الضوء وذبل ورد الجنائن.

اقتحم الميدان وحشٌ أسطوري بلا مشاعر، يرتدي الزي العسكري، ومعلقٌ على كتفه نسرًا وصورةً للرئيس المخلوع. يرسم الدخان الكثيف صورة صديقه، فيهرول نحوه، فيتلاشى بلا أثر. يهتز جسده بعنفٍ، يضغط على أسنانه وكأن الصرع أصابه. كل شيء من حوله يُدهن بالسواد، يشعر بحركة عشوائية تحيطه، يخترقه صوت هرولة الناس من حوله، ويسمع همهماتٍ آتية من جوف كهوف قلبه، يرتفع الصوت فجأة بعد أن صار واضحًا جليًا: "يسقط يسقط حكم العسكر."

يعود من بيت خطيبته غاضبًا، يدخل غرفته، ويطوح دبلتها في الركن المظلم، شعر بالانعتاق والحرية أخيرًا. ظل يسير على نباتات الوجع المشوكة، ظنًا منه أنه سيعبر لأرض الحب، لكنه وجد نفسه يعبر إلى أرض الضياع. رسمت الأتربة العالقة على الجدران صورة حبيبته مبتسمة، فتحامل على نفسه، وجلب قطعة قماش وقام بمسحها.

يفتح عينيه فيجد الكثير من الشباب ملقى بجواره، كأنهم زهور منثورة، تغطي وجوههم. يقتصنه الوهن، وترحل قوته عنه للسماء. أسفل قلبه بعدة سنتيمترات ثقبٌ من أثر رصاصة لم يشعر بها وهي تنغرس بجسده، كل ما حوله ينهار.. السماء، الأبنية، ووجه حبيبته. الدخان كائنٌ موتورٌ يقضي على النَفَس الضعيف المتبقي داخله. يصرخ طبيبٌ شاب: "لابد أن يُنقل إلى مستشفى." يحمله الشباب ويضعونه بعربة الإسعاف التي تشق طريقها إلى مستشفى القصر العيني، ويغيب عن الوعي مرة أخرى.

يحيطه الظلام، يبحث عن شمسه الآفلة، وعن قمره الآبق، يُقلّب بصره في السماء، لقد غادرتها النجوم، يرى وجه حبيبته كوكبًا مظلمًا يدور بلا مدارٍ ثابت، يحاول أن يجد كوكبًا آخر، فيعجبه واحدًا مزينًا بالخضرة، يظن أنه تابعه ومنقذه، يُحلق عاليًا ويصل إليه، فيجده بلا هواءٍ أو ماءٍ، مجرّد ظلمةٍ مخضرّةٍ، وصحاري تُنبت صحاري. يرقب جسده الملقى على حافة صخرةٍ قبيحة المنظر،

يقف أمام جثته وعلامات الدهشة عصافير تنقر وجهه، يصرخ لكن صرخته تضيع في الفراغ.

يستيقظ بعد أن تم استخراج الرصاصة منه، فيرى حوله المصابين ملقون على بلاط المستشفى، يحاول التحرك لكنه يجد يديه مكبلتين إلى عمود السرير، يحاول التخلص من قيوده، فلا يجني غير الألم الذي يسري في كل بدنه. يسمع ضجيجًا يأتي عبر الممر الذي يربط غرف المستشفى ببعضها البعض، لا يتبين الصوت، لكنه يقترب، يدخل رجلٌ خمسيني صارخًا: "أنتم تحرقون البلد، منكم لله، البلد تضيع بسببكم."

صرخة مكتومة تسري بروحه، شعبٌ يأكل ثورته، ويلقي ما تبقى منها للوحوش الضارية. عالمه مكسو بالسواد، وروحه تتحرر من قفصٍ صغير لتخرج لقفصٍ أكبر، وتضيع في أسطورةٍ سرمديةٍ لا تنتهي، أقفاصٌ من داخل أقفاصٍ، وروحٌ مكبلةٌ تنغرس السلاسل بقلبها.

يهمس في أذنه الطبيب الشاب: "سأفك قيدك، عليك أن تخرج مسرعًا، ولتنتبه لنفسك يا بطل."

يتحرك بصعوبةٍ بالغة، ينظر حوله يمينًا ويسارًا مترقبًا، كل شيءٍ ضاع، لم يتبقَ معه سوى الألم والجراح، طائر الحزن يحلق حوله، يمطره بحجارةٍ من سجيلٍ، لقد ضاعت الثورة، تبًا لها من ثورة. وصل البيت، أخذته أمه بين ذراعيها، تُقبّله في كل أجزاء وجهه،

يبكي بين ذراعيها، وتصرخ مشاعره كغزالةٍ صغيرةٍ أحاطتها الذئاب ونهشت جسدها.

يجلس على سريره رافضًا الطعام والكلام. تمر الأيام عليه بغرفته لا أنيس له سوى وحش الاكتئاب، تحاول أمه أن تخرجه من حالته تلك، لكنه لا يستجيب، يكتب على الحائط بقلمه المفضل: الثورة الملعونة.

يشعر بالاختناق، يفتح نافذة الغرفة، يرى فتاةً مشمسةً، ابتسامتها قمرٌ يبعث الدفء بروحه المتعبة، تلوّح له قائلة: "الحمد لله على سلامتك، كلنا قلقون عليك." يُبنى بينه وبينها جسرًا قلبيًا، يأخذ بروحه لحدائق السماء السعيدة، يعبر عليه إلى أرض الخلاص.

لَنْ يَضِيعَ الوَطَنُ،
فَالنُّورُ أَتَى،
لَنْ يَعُودَ،
لَقَدْ تَحَطَّمَتْ تَمَاثِيلُ الخَوْفِ،
وَنُزِعَ مِنَ القَلْبِ نَبْتَةُ اليَأْسِ.

لا تَبْكِ أَيُّهَا الفَارِسُ،

سَيَأْتِي المَدَدُ،
عَابِرًا بَحَارَ الثَّوْرَةِ،
يَحْمِلُ زُهُورًا بَاسِمَةً،
يَحْمِلُ رَسَائِلَ كُتِبَتْ بِحِبْرِ العَزِيمَةِ.

قُطِعَتْ ذِرَاعِي فِي المَيْدَانِ،
فَاسْتَنَدْتُ عَلَى عُكَّازِ الوَطَنِ،
فَنَبَتَتْ لِي يَدٌ نُورَانِيَّةٌ،
تَسْقِي الزَّهْرَةَ،
وَتُعْطِي الشَّمْسَ بَرِيقَ الحُلْمِ.

صَّفير

في البداية اختلطت عليّ كل الأصوات، ضجيجٌ يأتي من كل مكان. أسير في الشارع، فلا أسمع سوى صافراتٍ آتيةٍ من كلّ الأفواه، يأتي بعضها منغّمًا، لكنَّ معظمها مزعجٌ.

ظل مديري في العمل يُصّفر، وأحاول أن أتمالك أعصابي، يُلوّح بكلتا يديه، وتنتفخ أوداجه غاضبًا، في النهاية كسرت كوب الماء فوق رأسه، وضربت زميلين بكرسيّ المكتب، حينما حاولا دفعي، وهما يُصّفران.

الطريق إلى البيت مرهقٌ، الصوت الوحيد الذي أسمعه كما هو، صوت آلة تنبيه السيارات، يأتي مزعجًا كعادته، وكأنني كُتبَ عليّ سماع الأصوات المزعجة فقط. أوقفني متسولٌ، وظل نصف ساعة يعزف مقطوعةً من صَفّارةٍ يُمسكها بيديه، لم أعلم ساعتها، هل يُصّفر مثل الجميع، أم بتلك الأداة الصغيرة؟! توقف فجأة قائلًا: "حاجة لله." فمنحته كل ما معي، ووعدته بالمرور عليه كل يومٍ، فتمنى لي السلامة، وهو لا يفهم ما أقول، ظل يهمهم بصوتٍ خافت وأنا أغادر: "يا حول الله؛ الرجل كلما أكلمه يُصّفر"

وصلت البيت، كانت زوجتي في استقبالي، لم يختلف حديثها عن كل المحيطين، مجرد صافرات بلا معنى، جلست أمامها على المائدة، ألوك الطعام، وأنظر إلى عينيها الدامعة. كلما فتحتْ فمها

لا تطلق إلا الصافرات اللعينة، أخبرتها أنني متعبٌ، ولست جائعًا كفاية، وعليّ اللحاق بموعد باص العمل. لم تستوعب ما أقوله، لكنني علمتُ أن الأمر ليس كما أفهم، فبعد دقائق قليلة زحف الليل حولنا، أيُّ باصٍ يأتي في هذه الساعة؟! والعمل صباحًا دائمًا.

"لا تغلقي الشبابيك، أريد رؤية نور ربنا وهو عائد."

أشعر أنها لا تفهم ما أقوله، لكنْ في النهاية رضختْ لإشاراتي المضطربة، وتركت النوافذ مفتوحة، وانخرطت في بكاءٍ طويلٍ. يأتي بكاؤها كما تعودت، نحيبًا متقطعًا، وصوتًا واهنًا، فكلما تشاجرنا كانت تأوي لركن الجدار بغرفة نومنا باكية، لا تحاول النظر إليَّ، فأصرخ بها: "أنتِ نكديةٌ، وأنا متعبٌ، والعيشة معكِ مرهقة."

في اليوم المشئوم، لم أرها تبكي كعادتها اليومية، ظلتْ محدقة بوجهي، وتقول بصوتٍ حانٍ: "سلامتك يا حبيبي، إن شاء الله تقوم لنا بالسلامة." بعدها كانت الأصوات كلها مزعجة، وصمتتْ هي إلى الأبد. لم أسمع بعدها سوى الصافرات في كل مكانٍ، حتى سمعت المتسول العجوز، وهو ينعتني بالمُصّفِر المجنون.

عودة

سأحمل كل القضايا الإنسانية، وأرتدي سترةً أنيقة، ثم أجلس على شاطئ النهر، أحتسي قهوتي، وأنظر للشمس بعمقٍ، واضعًا ساقًا على ساقٍ، ثم أنظر للكاميراتِ مرددًا: "السماء صامتة، والله لا يعرف العدل." سأقول أكثر من ذلك، ثم أدلف لساحةٍ واسعةٍ، أقرأ كتبًا لا تمت بصلة للواقع، وأتجه إلى لوحةٍ عملاقة، تشعّ بياضًا؛ فأخطّ عليها بالفحم كلامًا غير مفهومٍ، ثم أتكئ على جدار الصلاة مسبّحًا بحمد الله، وشاكرًا له على نعمه الكثيرة. أطلب منه الصفح عن كل الكلمات التي تفوهت بها، أو التي حبستها داخلي.

في الصباح أرتدي جلبابي الوثير، أُلصق لحيتي، ثم أتجه إلى الجامع القريب؛ فيُقبّل يدي المريدون، ثم أصعد المنبر، وأصرخ بهم: "إنه غضب الله، فكل ما يحدث لنا من صنعِ أنفسنا، وإن لم نتب؛ ستُغرقنا الفيضانات، ويقتلنا الكفّار." أهبط فجأة، وأخرج للعراء مهرولًا، أخلع ملابسي، وأُلقي بلحيتي المستعارة، ثم أقفز في جدول الماء الراكد، أستغفر الله، وأدعوه أن أنسى كل ما مر، وأخرج كما ولدتني أمي.

يعود الزمن للوراء فجأة، صراخٌ يأتي من بيتٍ بعيدٍ، تتبعه زغاريد الفرحة، تهرول الأخت الكبيرة للخارج، تبحث عن أبيها الجالس أسفل شجرة البيت متوترًا، تصرخ فَرِحَة: "أبي، أبي، لقد أنجبت أمي ولدًا بهي الطلعة."

مقهى العمر

مقهى بلدي، يجلس به رجالٌ يرتدون ستراتٍ عصرية، ونساءً يرتدين فساتين سهرة تضج بالألوان المبهرة. أجلس في المنتصف كمركز دائرة، فتأتي إليّ نادلةٌ تحمل أكوابَ العمرِ، تغمز لي بعينيها، وتقترب مني، فأشعر بعطرها النفاذ، تضع الأكواب على المنضدة، وتُلصق نهديها بوجهي، تقول لي بصوتٍ مثير: "هل تحتاج شيئًا آخر؟"

سقط كوبٌ من على المنضدة، لكنني التقطه قبل أن يصل للأرضِ.. طفولةٌ، مراهقةٌ، كهولة.. وعودة لمراهقةٍ في حمايةِ طفولةٍ تُطارد فراشات زرقاء.

شجرةُ تينٍ شوكيٍّ، ترقد بأسفلها دجاجةٌ على فراخها تنتظر أن ينبت ريشهم، وأنا المشاهد للحقول، العابث بكل شيءٍ، أُسقط الثمرات، وأشطر الليمونات نصفين، أتكئ على شجرة المانجو الحزينة، فترميني بثمارها الناضجة، لكنني لا أكتفي، فأرميها بالأحجار، وأصعد أفرعها كقردٍ محترف التسلق، أُسقط الثمار غير الناضجة، وأنسى نفسي وأنام فوق الأغصان العالية.

صوت أبي يأتيني من بعيدٍ، فأُطالع وجهه من نافذة البيت، أهرول ناحيته، فيختفي قبل وصولي، وتأخذ أمي بيدي.. "لا تحزن يا ولدي، الأبُ يعيش بيننا، ويسكن القلوب."

حصن المسلم، جزء عمّ، وشيكولاتة جيرسي .. جوائزي القيمة، في الحقيقة لا أتذكر سوى تلك الجوائز على وجه الخصوص. نبني بيتنا الجديد، يتحرك أبي يمينًا ويسارًا، يحمل طوبًا من هنا، وحجرًا من هناك، يسقي العمال، ويقف ممتنًا أمام البيت غير المكتمل. أُخبره أن المسابقة بدأتْ، ويخبرني أن عليّ اليوم مساعدته، فأقول بطفولةٍ ماكرة: "لقد ساعدتكَ بالفعل." ألحق المسابقة متأخرًا، وأجتاز كل الأسئلة.. وأحصل على الجوائز.

"هل تحتاج شيئًا آخر؟" يباغتني سؤال النادلة فجأة، فأطلب مقابلتها بعد أوقاتِ العمل، فتضحك بغنجٍ، وتُنبهني أن صاحب المقهى ينظر إلينا. تسقيني بيديها كوبًا آخر، فلا أعرف متى مات أبي، أقبل بناء البيتِ أم بعده؟! أتذكر فجأة، لقد مات قبل أن يكتمل البناء. كنت أجري فوق الجدران غير المسقوفة، أسير كلاعبِ سيرك محترف، فتصرخ عليّ أمي: "احذر!" فأقفز إليها، قائلًا: "لا تخافي؛ فالقرد الذي أنجبتيه يحمل في عينيه الضوء." تقف أمام فأرٍ صغيرٍ صارخة، فأضحك على خوفها، وأقول لها: "هو مثل عقلة الأصبع." فتضربني على كتفي، فأُبعد الفأر مكملًا ضحكتي. أتركها وأحصد نباتات المنور الذي أقوم بزراعته: ربع فول، وربع بصل، ربع بطاطس، وربع فلفل، وأترك شعاع شمس

في المكان؛ فتكبر النباتات. أتسلق نبتة الفاصوليا، وأحصل على البيضة الذهبية، ثم أقطع جذعها حتى لا يُمسكني حارسها.

الاختفاءُ مساءً داخل النباتات النامية على مسقى الماء، كلما مر أحدٌ أصرخ به، فيهرول من الأشباح والعفاريت التي تنادي عليه، أضحك كثيرًا، وأفرك ورودًا بيديّ، فيخضب كفيّ بلونها الوردي، توبخني أمي عند عودتي، وتعاقبني بعبوس وجهها خمس دقائق.

رجال السترات العصرية يقومون فجأة، يقدمون أياديهم لنساء الفساتين الملونة، ويقف صاحب المقهى يغني بصوته الأجش، أصبح مركز دائرة، ويتراقص الزبائن حولي. لا أستطيع القيام، ولا ولا احتساء كوبٍ من الأكواب التي أمامي، وتفشل محاولاتي في إسكات صاحب المقهى، ويستمر صوته الكريه.

تقترب النادلة فجأة، تلعق رقبتي، وتمنحني قبلةً سريعة، وتهمس في أذني أن ألحقها على بيتها بعد انتهاء اليوم. تقترب الشمس من رأسي، فلا أستطيع تمييز الرجال من النساء، ولا أستطيع تمييز النادلة من صاحب المكان.. وتسقط الأكواب، وينقلب الزمن.

فقدتُ صندلي أول يومٍ بالمدرسة، بكت ابنة الجيران في الفصل، ولم تذهب مرة أخرى بعد أن حملتها "الأبلة" لتُهدأها.. أحببت العسلية والسمسمية، وكلما ذهبت للبائع الجوّال في الفصل،

أدوس على أصابع الأبلة، مرة، مرتين، وفي الثالثة عاقبتني بالنظر إلى خطوطها غير المفهومة على السبورة، ورفع اليدين.

مدرسٌ بنفس اسمي، يُنظمنا ويجعلنا نتسابق في الحَوشِ.. فأسبق الجميع، لكنني أسقط عندما يتحول السباق للهرولة للوراء.

يبدأ المطر زخاته، وأنا بلا مظلة تحميني. توقف كل شيءٍ حولي، النساء بأزيائها الملونة، وهي تحتضن الرجال، والأكواب ما زالت في طريقها للسقوط، فتسقط بها عدة قطراتٍ. أفرد ذراعيّ، وأتحرك بين المناضد المختلفة، أصل للنادلة، وأضمها بشدة، أقبلها كثيرًا؛ فتزول تخشيبتها، وتمنحني قبلاتٍ أكثر. تقول لي: "عليكَ أخذ يديّ." فأخبرها أن الأيادي غير كافية، وأحملها وأركض بها تحت الماء المتساقط. تتوقف الأمطار فجأة، فأجدني ما زلت في منضدتي، وما زالت النادلة كما هي واقفة أمامي، وتستكمل الأكواب طريقها للسقوط.

قطع الدمينو تستكين أمامي.. قطعةُ صباحٍ، بجوار قطعة مساءٍ، بجوارهما قطع لأيامٍ كثيرة لا أذكرها: يوم تخرجي من الثانوية، وأول يوم بالجامعة، أول يومٍ بعد الاعتراف بالحب، وأول يومٍ بعد الفراق، لحظة الفراق نفسها. تختلف المواقف لكنها تشبه بعضها البعض، نفس العناوين، والأحاسيس. تركض الأيام بين قطع الدمينو، واللاعب الخصم لا أراه.

تصل الأكواب للأرض، فتتناثر الذكريات في كل مكانٍ، ويتحرك الجميع، يستكملون رقصهم، ويستكمل صاحب المقهى غنائه، وتستمر النادلة في إغوائي، أطلب يديها قائلًا: "لقد نجحتِ؛ فأنا عاشقٌ لكِ." فتضع يديها المركبتين على المنضدة، وترحل، وتختفي خلف عوادم السيارات.

يقترب مني صاحب المقهى بوجهه الكريه، يطلب الحساب، فلا أجد معي شيئًا، وأخبره أن الأكواب سقطت ولم أشرب شيئًا، فيرد بأنني شربت كل شيءٍ، وعليّ دفع الحساب، وإلا العمل صبيًا بالمجان..

أحمل أكواب العمر، فأراني جالسًا بمنتصف المقهى كمركز دائرة، أقترب مني مؤديًا عملي الجديد قائلًا: ماذا تطلب؟!

تمت

المحتويات

إهداء ٥
ماء العين ٧
ابن الحياة ١٢
توحد ١٤
لقد كبرتِ ١٦
ثورة الأصابع ١٨
حصيرة ١٩
النخلة ٢١
تقلص ٢٢
قمة ٢٣
جالس القرفصاء ٢٤
دموع النسيج ٢٥
المحطة الأخيرة ٢٦
الهوى غلاب ٢٧
شقٌ زمني ٢٨
الظلام ٣٠
سلم السماء ٣٢

أذرع متساقطة ٣٣
صلاة الماء ٣٥
لقد حدثت المعجزة ٣٨
عجز ٣٩
لاعب السيرك ٤٠
سفينة الميلاد ٤١
مستقبل ٤٣
لعنة طائرة ٤٤
مومياء ٤٦
تجمد ٤٧
بلا رأس ٥٠
مسرح ٥٤
الساحرة ٥٥
اختفاء ٥٧
ميدان الرجل الحديدي ٥٩
كانجرو ٦١
قُبلة حياة ٦٣
جنون ٦٥
الوليّ ٦٦

يد الحلم ٦٧
حدود ٦٩
تفكير ٧٠
نول ٧١
عالم رحب ٧٢
الدرج السحابيّ ٧٤
قطار ٧٦
الله ليس في مساجدكم ٧٨
الفتاة والظل ٨٠
امرأة ٨٣
السيد ٨٦
الطريق ٨٨
الروح الهائمة ٩١
مهد السحاب ٩٣
الساعات الأبدية: حكاية حب لا يفنى ٩٥
السم الهاري ٩٩
قصتي المنسية ١٠١
دفء ١٠٢
نظارة الطريق ١٠٤

طائرٌ حائر ١٠٦
بداية ١٠٨
الجدران ١١٠
مانح الهدايا ١١٢
أنا حر ١١٣
مقايضة ١١٦
سنواتي السبع ١١٧
صاحب الكلب ١١٩
المرايا ١٢١
النافذة ١٢٣
ماكينة الغزل ١٢٤
الحكيم ١٢٥
العملاق ١٢٩
الثورة الملعونة ١٣٤
صَّفير ١٤٣
عودة ١٤٥
مقهى العمر ١٤٦